

لنخزول الحماسة

فنون الأدب العربي

الفن القناني

٥

الفخر والحماية

الطبعة الخامسة



دار المعارف

مقدمة

الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها ، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان ، كما لا يخفى ، سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها ، مستجلباً محاسنها ، صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين ، مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الإيثار للنفس ، إذا تجسم في عبارات شعرية ، كان الفخر وكان الحماسة .

والفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب ، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم ، يعبر عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة ، كما يعبر عن انتفاخ أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية والطبيعية ، وانطلاقها النباض وراء الآمال والذرى .

والذات في الفخر ذات وتمددات للذات ، من خلال خلقية وخلقية ، ومن أصل ونسب ، وحزب ومذهب ، وأعمال وأقوال ، ومواقف كرامات وبطولات ، وما إلى ذلك مما لا نهاية له . والفخر من ثم أنواع : فخر ذاتي ، وفخر حزبي ، سياسي ، وفخر ديني ، وفخر حربي .

أما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد ، وما دار

حول القبيلة والآباء والأجداد . وأما الفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه ، وينشر تعاليمه وآراءه ، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه في العهد الأموي ، وذلك لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم ممن سيأتى الكلام عنهم في محله . وأما الفخر الديني فقد ظهر خصوصاً مع الإسلام ورافقه في فتوحه وانتشاره ؛ وأما الفخر الحزبي فهو شعر الحماسة ، والحماسة نشأت مع العربي منذ كان ، ومنذ ارتقى في أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان ، ونكبات الحداث ؛ وقد فطر العربي لذلك على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية ، وطالما نشبت الحروب عند العرب ، وشبت الثورات الدامية ، فمن حرب الأوس والخزرج ، إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، إلى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، إلى حروب اليمن وعدنان ، إلى حروب الفتوح التي امتدت ميادينها من حدود الصين إلى بحر الظلمات ، إلى قلب أوربة ، إلى الحروب المختلفة التي رافقت العرب في ميادين عملهم ، والتي فجرت القرائح ، فتدفقت بسيل ملحمة مختلف زاهر بالبطولة والعزة .

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفلت بالمغالة ، وانطلق فيهما الخيال مضخماً مهولاً ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلية بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتداداً هداراً ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق في مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقات الأسلحة ، وجلبات المنون .

وإننا سنلزم في دراستنا هذه جانب الإيجاز ، مقتصرين على الخطوط الكبرى ، مبينين المعالم والأطوار ، لا يهمنا من الأدباء إلا من مثل طوراً ، ومن الأحداث إلا ما كان عاملاً قوياً من عوامل التطور ، ومن الميزات الأدبية إلا ما كان بارزاً شديد البروز .

والله ولى التوفيق .

حنا الفاخورى

الفصل الأول

الفخر الذاتي

قلنا في مقدمتنا إن الفخر الذاتي هو ما دار حول الشاعر في نفسه وفي آباءه وأجداده . وهذا كثير في الأدب العربي لا يكاد يخلو منه ديوان ، وذلك أن العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالي والمباهاة ، شديد الاندفاع بما في نفسه من نزعات ، والتغنى بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ، وهم في نظره هو عاملاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ، باذلاً بأكفهم ، رافعاً مداмик المجد بأناملهم الزهراء ، قائلاً أروع القول بالسنتهم البليغة . وللصحراء المحيطة يد فعالة في تطلب ما لا يوجد ، وفي استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأخطار والضيقات يد فعالة في تنزي الطموح وتوثبه إلى الذرى ؛ وللهاجمة العناصر وقوى العدو الغازي أو المستعمر يد فعالة في اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ، التي تنفجر مفاخر لا يجد من انطلاقها حد ، والتي تتسلح بأجنحة الخيال المضخم ، وتلدوم في أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشى ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التي فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ، وقد فخروا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمروعة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيماً . ثم فخروا بالتعقل ، والفيض الشعري ، وحسن الصياغة ، والجمال الفني ، وما إلى ذلك مما سنأتي على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، في بلاد تعددت صحاريها . وقل ماؤها ،

واتسعت أراضيها المجذبة ، وتسلب عليها الحر والسموم ، فكانوا في أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيمهم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلي ، ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آماهم ، وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعي ، ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة في البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ، وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس ، وراح الشعراء يتغنون به ، ويفخرون بالبذل والعطاء ، ويفخرون أنهم يعطون علي البديهة ، وأنهم يسرعون في البذل وإن جهلوا السائل ، وأنهم يتהלون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرحبون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ، ويوقدون له نار القرى ليلاً على الجبال والربى ، ويعودون كلهم أن ينبج للضيفان فيبتدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة في البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف ، وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ، وترفعهم عن الفحشاء ، وتنكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحياتهم ، وعفوهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بثورتهم في وجه الإهانة ، وصلابتهم في طلب الثأر .

والحياة في البادية حياة ترحل وتنقل ، لا يقيدتها قيد قانون ، ولا قوة منفذة . ولا محاكم ولا شرطة ، ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدم الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة في البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والباثسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ، وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وبتلبية دعوة المكروبين في الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء .

ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبث الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الجديدة والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحى به البيئة الجديدة ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالذوق فى التنصيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبثت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعى وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الذاتى على ممر العصور .

الفخر الذاتى فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبثاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والمجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدهمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ - فخر الصعاليك :

للصعاليك في الأدب العربي فخر هو عصارة البادية وخلابة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شراً هو البادية في بدائعها . وقسوتها ، في شظف عيشها وانطلاق حريتها ، في هربها من النفس إلى النفس ، في سذاجتها العذبة وفي ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذي لا يصحبه إلا « العياني الأفل » ، ورجل الحزم الذي يقرن الشجاعة إلى الفطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائداً للعمل ، فهو « للقصد يبصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شري » للعدو و « أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدم الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظر » فيتغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبدأ يقظان يحسب لكل شيء حساباً ، وهو أبدأ رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس . وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقري الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر في نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المرء لم يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جَدُّهُ	أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ
وَلَكِنْ أَخَوِ الْحَزْمَ الَّذِي لَيْسَ نَازِلًا	بِهِ الْخَطْبُ إِلَّا وَهُوَ لِقَصْدٍ مُبْصِرٌ
فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حَوْلَ	إِذَا سُدَّ مِنْهُ مَنَعِرُ جَاشٍ مَنَعِرُ
أَقُولُ لِلْحَيَانِ وَقَدْ صَفِيرَتْ لَهُمُ	وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيْقُ الْجُحْرِ مُغَوَّرُ
هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنْبَةٌ	وَلِمَا دَمٌ وَالْقَتْلُ بِالْحُرِّ أَجْدَرُ

وَأُخْرَى أُصَادِي النَّفْسَ عَنْهَا وَإِنَّهَا
فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فزَلَّ عَنِ الصِّفَا
فَخَالَطَ سَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصِّفَا
فَأَبْتُ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدْتُ آتِبًا
لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ
بِهِ جُوجُؤُ عِبَلٍ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
بِهِ كَذْحَةُ وَالْمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ
وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفِرُ

وذلك هو العربي الجاهلي ، وتلك هي النفس العربية الأصيلة التي ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزء بالحياة ، وتعلق بها ، هي كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقدر ، ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء في جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعي الحازم .

والشنفري هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كراً وفرّاً ، والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاعة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفري ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعدوثة . وما هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب في الفيافي ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله في عزة نفسه وسخطها ووحشتها . نجتزئ منها بما يلي :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صَدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرُ
فَأِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ
وَشُدَّتْ لَطَائِيَّاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِيهَا ، لِمَنْ خَافَ الْقَيْلَى ، مُتَعَزِّلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِي لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى

لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسَ
هُمْ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٌ ، غَيْرَ أَنِّي ،
وَلِنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ
وَلِي كِفَائِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَازِيَةً
ثَلَاثَةٌ أَصْحَابٍ : فُوَادٌ مُشِيعٌ
هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا

سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَغْفِلُ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَبِيَالُ
لَدَيْهِمْ ، وَلَا الْجَانِ بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ
إِذَا عُرِضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
بِأَعْجَلِيهِمْ ، إِذَا أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ
بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِي مُتَعَلِّلُ
وَأَبْيَضُ لِصَلَابِيَّتْ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
رِصَائِعُ قَدْ نَيْطَتْ إِلَيْهَا وَمَحْمَلُ
مُرَزَّاةٌ تُكَلِّي تَرْنُ وَتُعَوِّلُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والجلود يفخر بهما في غير تبجح ، وهو
رجل الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحلب على ذوى البؤس ، ومن
أروع ما قال في هذا الصدد :

دَعِينِي أُطُوفَ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي
أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِيمَ مُذِيحَةً
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا بِحَادِثٍ
أَفِيدُ غِنًى فِيهِ لَدَى الْحَقِّ مَحْمِلُ
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقُوقِ مُعَوِّلُ
تُلِيمُ بِهِ الْأَيَّامُ فَاَلْمَوْتُ أَجْمَلُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر
 مما يعيش لنفسه ، ويبدل كل شيء في سبيل الغير . وفخره اعتراف بما يعمل
وبما يرى ، واندفاق طبيعي للنفس الجاهلية ، في أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب - فخر الشعراء الفرسان :

وهناك فئة أخرى من الشعراء هي فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم في الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طي وعنزة بن شداد .
أما حاتم الطائي فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل في الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التي تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابي : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحداً أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .
وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنيا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لَا أَبَيْتُ اللَّيْلَ جَادُ	أَعَدُّ بِالْأَنَامِلِ مَا رُزِيتُ ^(١)
إِذَا مَا بَيْتٌ أَشْرَبُ فَوْقَ رِيٍّ	لِسُكْرِ فِي الشَّرَابِ ، فَلَا رَوَيْتُ
إِذَا مَا بَيْتٌ أَخْتَلُ عِرْسَ جَارِيٍّ	لِيُخَفِّسَنِي الظَّلَامُ فَلَا خَفِيتُ ^(٢)
أَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونُ جَارِيٍّ ؟	مَعَاذَ اللَّهِ أَفَعَلُ مَا حَيَّيْتُ !

فهو عفيف وهو أبى النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال .
وهو رائع في فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبدل في سبيل الثناء والذكر الحميد . فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغدر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ ، مَا لِي مُعَبِّدٌ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي ، وَيُؤْكَلُ طَيِّباً وَيُعْطَى ، إِذَا مَنَّ الْبَخِيلُ الْمَطْرَدُ

وللمال في مذهبه سبيل ، وللبدل في نظره مبرر ، فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصي والداني .

وحاتم يوقد النيران للضيفان ليلاً ، ويبذل في سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنَّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ؛ وكانت كلابه لا تهر في وجه ضيوفه :

وإِنَّا نُهِنُ الْمَالَ فِي غَيْرِ ظَنَّةٍ وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السُّنَنِ ضَرِيرُهَا (١)
إِذَا مَا بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كِلَابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإِنِّي جَبَانُ الْكُذْبِ بَيْتِي مُوَطَّأً أَجُودُ ، إِذَا مَا النَّفْسُ شَمَعٌ ضَمِيرُهَا
وإنَّ كِلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعُودَتْ قَلِيلٌ ، عَلَى مَنْ يَغْتَرِبُنِي ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكى النزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال . وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروءة العربية الأخاذة .

وأما عنتر بن شداد العبسي ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة » فهو رقيق

(١) السنون : أى سنو القحط .

(٢) العقور : الذى يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صمود دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربي الكريم « فيقول :

أَتْنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَهْلٌ مُّخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمَ (١)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ (٢)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرَمِي

وعنزة يغشى الوغى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ؛ وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التي تأتى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتي تؤثر الجوع على المأكل الخسيس ، ولا تخون البحار في ماله أو في عرضه .

ح - فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نغمة الفخر في الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النغمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمتم أوتارها بعض التضخم ، فتضخمتم من ثم المعاني والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكروه . ومن هذه الفئة السموءل وطرفة بن العبد .

(١) مخالفتي ؛ معاشرتي .

(٢) المشوف : المجلو ، استعارها للدينار . المعلم : الذي يحمل كتابة .

أما السموعل فهو ابن غريض بن عادياى اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتياء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموعل على النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شىء من عل ، لا عن كبرياء عمية ، ولا عن غرور صبيانى ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولتهم ، وعزة جار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموعل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخرًا :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ	فَكُلُّ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ
وَلِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا	فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ
تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا	فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا	شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعَالِ وَكُهُولٌ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا	عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ	مَنْبِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الشَّرَى وَسَمَا بِهِ	إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلٌ
وَلَنَا لِقَوْمٍ مَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَبَهُ	إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ
يَقْرَبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا	وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفِهِ	وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا	وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلُ
صَفُونَا فَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا	إِنَاثٌ أَطَابَتْ حَمَلَنَا وَفُحُولٌ

عَدُونَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا
فَنَحْنُ كَمَا أَلْمَزْنَا مَا فِي نِصَابِنَا
وَنُنَكِّرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ
وَمَا أَخْمَدَتْ نَارُ لَنَا دُونَ طَارِقِ
وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ
مُعَوَّدَةٌ أَلَا تُسَلِّ نِصَالُهَا
سَلَى إِنْ جَهِلَتْ النَّاسَ عَنَّا وَعَنَّهُمْ
فَإِنَّ بَنَى الدِّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ
لِوَقْتٍ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نَزُولُ
كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلُ
وَلَا يُنَكِّرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
قَوُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَلَا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ
لَهَا غُرَّرٌ مَعْلُومَةٌ وَحُجُولُ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
فَتُغْمَدُ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
فَلَيْسَ سَوَاءَ عَالِمٍ وَجَهْلُولُ
تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وَتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربي النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس ،
وهي تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ، وهي تنبض بالحياة وتمثل روح
صاحبها أقوى تمثيل ، وكأني به شاخصاً في كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ،
وكأني به في ذروة المجد العربي يردد القول :

تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

وأما طرفة بن العبد فليس من شعراء الفخر الذين أكثروا من القول فيه ،
ولكنه شاعر عاش في جو من التحرر الفكري والأخلاق ، فاصطدم بالواقع الأليم ،
وطرد من حيه فراح يضرب في البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة ، واصطدم هنالك
أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام في نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديك الشقور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها ، وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضيمنتها من أقوال الفخر ما يصيدى لحالاته النفسية أصدق إصداء . وهو في فخره رجل عنفوان يقبل على الواقع انطلاقاً بخياله ، وهو رجل صراحة وجراءة ، يصف لنا حاله في غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور في الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم في اتزانهم ، ورفعهم في انضباطهم وبسطة أكفهم . لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسرات ، يتغطون في غير حساب ، ويقرون الضيفان في غير اقتصاد ، لهم في نحور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم في نحور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تغز الحمرة في جنباتهم ، ولكن لهم مع الحمرة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وَتَشَكَّى النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا	فَأَصْبِرْ إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ ^(١)
إِنْ يُصَادِفُ مُنْفِسًا لَا تُدْفِنَا	فُرْحَ الْخَيْرِ ، وَلَا نَكْبُو لِضُرِّ ^(٢)
أَسَدُ غَابٍ ، فَإِذَا مَا فَزَعُوا	غَيْرُ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ ، هُذُرٌ ^(٣)
وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ	يُصْلِحُ الْإِبْرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرِ ^(٤)
طَيَّبُوا الْبَاءَةَ ، سَهْلٌ ، وَلَهُمْ	سُبُلٌ إِنْ شِئْتَ فِي وَحْشٍ وَعَرٍ ^(٥)
وَهُمْ ، مَا يَهُمُّ ، إِذَا مَا لَبَسُوا	نَسِجَ دَاوُدَ لِبَاسٍ مُخْتَصِرٍ ^(٦)

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) المنفس : النفس . نكبوا : تخفوا .

(٣) الأنكاس : البقاء .

(٤) الإبر : المصليح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحاتهم سهلة لطالبي معروفهم ، وهى وعرة لطالبي ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المختصر : الخاضر .

وَتَسَاقَى الْقَوْمُ كَأْسًا مُرَّةً
ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ
لَا تَعِزُّ الْخَمْرُ ، إِنْ طَافُوا بِهَا
وَرَثُوا السُّوْدُودَ عَنْ آبَائِهِمْ
نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى
حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا

وَعَلَا الْخَيْلَ دِمَاءُ كَالشَّقِيرِ (١)
غُفْرٌ ذَنْبُهُمْ ، غَيْرُ فُخْرٍ
بِسِبَابِ الشُّوْلِ ، وَالْكُومِ الْبُكْرِ (٢)
ثُمَّ سَادُوا سُودْدًا غَيْرَ زَمِرٍ (٣)
لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ (٤)
أَقْتَارُ ذَلِكَ أَمْ رِيحُ قَطْرٍ ؟ (٥)
آفَةُ الْجُزْرِ مَسَامِيحٌ يُسْرُ
وَاضْحُو الْأَوْجُهُ ، فِي الْأَزْمَةِ ، غُرُ
فَاضِلُو الرَّأْيِ فِي الرُّوعِ وَقُرُ
صَادِقُو الْبِئْسِ ، فِي الْمَحْفَلِ غُرُ

ويعمى الشاعر الشاب في تعداد المفاخر متثدلاً ، هادئ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هو الحق ؛ لا يبغى التهويل ولا يتطلب التمجيد ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروعة ، وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو في كلامه الصارم يصوغ المعاني في قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التي ترى وتدرك وتقيس كل شيء بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق في الغلو المبتدل .

* * *

-
- (١) الكأس المرة : الحديث في الحرب . الشقر : شقائق النعمان .
(٢) طافوا بها : ساروا بها . سباء : شواء . الشول : النوق التي مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .
(٣) الزمر : القليل .
(٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .
(٥) القتار : رائحة اللحم المشوى . القطر : العود الذي يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتي في الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التي كان العربي يعتز بها ، وهي مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلي نبثاً تلقائياً في سداجة عذبة ، وفي إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتي في العهد العباسي

لم يقتصر الفخر الذاتي على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر في جميع تطوراتهِ ، وقد انتشر في العهد الإسلامي والأموي ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا أثرنا أن نجعله في باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسي ، وكان الانقلاب العظيم في السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية . وبين العقل العربي والعقل اليوناني والفارسي والهندي ؛ وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية في صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتي في العهد العباسي فهي مما يماشي حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا في بدء الأمر في طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات . من عادات وتقاليد عربية في الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هي عصارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانفلات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذي فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبني في غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون وينظرون ، وراحوا يكتبون في ما يبحثون ، وإذا الجوجو علمي ثقافي تجديدي ، وإذا هنالك صراع بين القديم والجديد ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير نخطه الجاهلية والعهد الأموي ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم في

الأمور ، والأصل العريق في الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة
بالفن ، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى في سلم المجد
المعنوى ، وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة في الأدب العباسي . ولئن عثرنا بعض
الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم ، فما ذلك إلا نفحات صحراوية في
بلاذ اليمن والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة في عالم من الأنعام المتناسقة .

ولئننا سنعرض لبعض شعراء الفخر في هذا العهد مبينين ما لهم من صفات
وميزات ، موضحين آراءهم وأساليبهم ، وإن في شعرهم الدلالة الثابتة على ما في
شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

أ - فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضرمر للغرب شراً ، وشعوبية
غاضبة على السلطان القائم ، وتدخل الفرس في صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى
التجديد في مطلع العهد العباسي . بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب
الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية في الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربي ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر
على عادة الشعراء ، وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل
الصفات المحيية إلى ابن العهد العباسي ، في كلام متين ، وتدفق عجيب ،
وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ؛ وإذا به رجل الشهرة الواسعة
التي لا تضاهيها شهرة :

أَنَا الْمَرَعْتُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَرْتُ بِي الشَّمْسُ لِلدَّائِي وَلِلنَّائِي

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفةُ مثلي في محاسنه ولست مثلي فنم ياماضغ ألماء^(١)

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الحطة العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر ذى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ الْقَوْمِ يَوْمَ مَهَابِلِ بِقَوْلِي وَمَا بَعْدَ الْبَيْسَانِ مِرَاءُ
وَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا رَبِيعَةً أَنَّنِي إِذَا السَّيْفُ أَكْدَى كَانَ فِي مَضَاءِ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الْجِنَّ فِي مَسَارِحِهَا قَلْبِي مُضِيٌّ وَمِقْوَلِي ذَرِبُ

هو رجل العقل والخصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القريحة الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يَا سَلَمَ إِنِّي أَمْرٌ يُوقِّرُنِي حِلْمِي إِذَا الْقَوْمُ فِي الْخَنَا وَثَبُّوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزهم وشرفهم ، ورجاحة عقولهم :

أَصُونُ عَنِ اللَّثَامِ لُبَابَ وَدِّي وَأَخْتَصُّ الْأَكَارِمَ بِاللُّبَابِ
وَأَيُّ فَتَى مِنَ الْبَوَغَاءِ يُغْنِي مُقَامِي فِي الْمَخَاطِبِ وَالْخِطَابِ^(٢)

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجو وينتعه بالحق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوقاء : الحق .

وَتَجْمَعُ دَعْوَتِي آثَارَ قَوْمِي هُمُ الْأَسَدُ الْخَوَادِرُ تَحْتَ غَابِ
وُلَاةِ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الْمَعْلَى يَرُدُّونَ الْفُضُولَ عَلَى الْمُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو في قومه . وهذا هو العقل عنده وعند قومه ،
وهذه هي النزعة الإنسانية التي تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالحدود ،
وتنبت من الشر خيراً ، ومن الغضب برأ ، وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة
إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل
خير عمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الجميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ،
كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال في بأس شديد ، وسخاء في التفاني عجيب .

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع
الجديد ، وكم في هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !
وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربي ، وهو بعيد عن عادات
العرب . وهنا تظهر النزعة الشعبوية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول .

هَلْ مِنْ رُسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
بَأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كَسْرَى وَسَاسَانِ أَبِي

إن في هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم .
وهذا شيء جديد في تاريخ الفخر العربي . وإننا إذا أنعمنا النظر في القصيدة
تجلت لنا الحضارة الفارسية في أبهتها وروبقها ، وذكرنا الحروب الفارسية
وانتصارات الأكاسرة ، ووقفنا أمام الشاعر متتبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين
أثر الفرس في الانقلاب العباسي ، وكيف كان ذلك شرارة ألهمت النار الشعبوية

في طول البلاد وعرضها ، مما شجع الألسنة على تنقص العرب والخط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته في ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدثان إلا لساناً محمداً ، وشاعرية فياضة تلبي حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثم ميال إلى المفاخرة ، حاقداً على الحظ ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، ينتفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداً عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نُعَاتِيَهُ

وهكذا كان بشار نفير العهد الجديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التي انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب — فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التي حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرستقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الجديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتنميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر في هذه المرحلة أبو تمام والبحتري وابن الرومي .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليلة في الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباهر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه في اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيء ، وما تمتاز به دون سواها من حجي وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحتري فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهاياً بمكارمهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف الين وعزها بنخسونة عرب الشمال وسوء حالهم ؛ كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المفرد ، ذلك الكبر الذي طالما حال التكسب دونه في حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عنفوانه وعناده ، وهضم الإهانة في حذر ، خشية صد العطاء .

وأما ابن الرومي فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية في وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقرع الممدوحين على الالتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده في نظره الجدير بالالتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِي شِعْرٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسَانُ ذُو الْعَقْلِ وَالْحَنِجِي عَبْدُهُ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

إِنْ أَكُنْ غَيْرَ مُحْسِنٍ كُلِّ مَا تَطْ	إِبُّ إِنِّي لَمُحْسِنٌ أَجْزَاءُ
فَمَتَى مَا أَرَدْتُ طَالِبَ فَخْصٍ	كُنْتُ مِمَّنْ يَشَارِكُ الْحُكَمَاءُ
وَمَتَى مَا أَرَدْتُ قَارِضَ شِعْرِ	كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشُّعْرَاءُ
وَمَتَى مَا خَطَبْتُ مَنْ خَطِيباً	جَلَّ خَطْبِي فَفَاقَ بِي الْخُطَبَاءُ
وَمَتَى حَاوَلَ الرِّسَائِلَ رَسَلِي	بَلَّغَنِي بِلَاغَتِي الْبُلْغَاءُ

ح - فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً في امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطاتها ، وقد بلغت أوجها في عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهياً لكل ذى طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بني العباس في بغداد ، ودولة البويهيين في فارس ، ودولة الحمدانيين في الشام ، ودولة الفاطميين في مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء في هذه الحقبة أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء المعري ، والطغراني .

أبو الطيب المتنبي :

ولد بالكوفة وفخره كثير في ديوانه . وهو مبثوث في جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بوحدة منها . فأبو الطيب يفخر في جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزل أم شكا . ولا عجب ، فهو لا يرى له مثيلاً في الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف في الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته ، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلاً صدره وفاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربي بالفصاحة والبيان ، وقبيلته اليمنية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه النزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ، ومن معاكسات الزمان ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريجاً وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبي بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلّة ما عرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لَا بِقَوِّى شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُّفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ ، لَا بِجُدُودِي !

ولذلك حصر فخره في نفسه ، مطرباً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَيْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَيْتُ الْإِسْكَانَ دُرَّ السِّدِّ مِنْ عَزَمِي

وهو يجب أن يتمثل بعنزة ، فيصف نفسه في المعمة ، يوقع بالعدو المذعور بالسيف والرمح . وكم تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكراً مقدرة في الشعر وانقياد القوافي له :

أَنَامُ مِلَّءَ جَفَوْنِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ النَّاسُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

وسيرة شعره :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بَيُوتُهُ إِذَا كُتِبَتْ ، يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الْحَبِيرُ

والمتنبى يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق

الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَشْعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَيْلِ وَاللَّيْلِ وَالْبَيْدَاءِ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

وفخر المتنبى صريح ، جرىء في كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد

مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبريائه بازدياء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنيا ، وجمال الصفات الرجولية
واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطي شيئاً من تلك المعاييب الضخمة ،
ومن أروع المواقف التي توضح لنا نفسية المتنبي في فخرها واعتدادها ذلك
الموقف الجبار الذي وقفه في حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ،
وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمداني فقد افتخر كل حياته ، حتى في أسره ، وأقم
الآبيات الفخرية في أغلب منظومه ، أياً كان نوعه .
كان لأبي فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آباءه الذين اشتهروا بالشجاعة
والجلد وعلو الهمة ، داع يستفز به إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور
في قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .
ولما شب رأى في نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب في قراع الأسنة
واقترحام المخاطر ، وشماثل أثارت في نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ،
وأحرز من الانتصار على مناهضي ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ،
هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب في مجابهة الأخطار .
ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أبقى المدلة ، فشرع يتعزى
ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

ولعل تيتمه في حداثة سنه ، الذي حرمه عطف والده وحفاوة المتزلفين ،
دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .
ولأبي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ زائرُ فيسعدَ مهجورٌ ، ويسعدُ هاجر

وهو يرى في قبيلته الخير كله ، فإن ماضيها وما لها من الأيام الماثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَسْنُ خُلُقِ الْأَنَامِ لِحَسْبِ كَأْسٍ وَمِزْمَارٍ وَطَنْبُورٍ وَعُودٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا لِمَجْدٍ أَوْ لِبِئَاسٍ أَوْ لِحُجُودٍ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوها في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتدليلاً للثائرين ، وقهراً للروم ، وإخضاعاً للقبائل المنتشبة . قال في قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفَضِّلُنَا الْأَنَامُ وَلَا تُحَاشِي وَنُوصِّفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نُحَاجِي
وَقَدْ عَلِمْتَ رَبِيعَةً بَلَّ نِزَارُ بَأْنَا الرَّأْسُ وَالنَّاسُ الدُّنَابِي

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين . بل ينتقل إلى تعداد مناقب جدّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفخرة باقية أبد الدهر ، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشِيدُ كَمَا شَادُوا ، وَذَبْنِي كَمَا بَنَوْا لَنَا شَرَفٌ مَاضٍ وَآخِرٌ غَابِرُ

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته في وقائع الحروب ، وأنفته ، وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنية .

ومهما يكن من اشتداد النواثب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأبى مواطن
الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة ، ولكنها لا ترى ضيراً في التشكي والعتاب ،
وتذكير الواجب ، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل في حياته
شريفاً عزيزاً :

وكيفَ ينتصفُ الأعداءُ من رجلٍ العزُّ أولُّهُ والمجدُّ آخرُهُ

يتوكأ أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب من مثل عمرو بن كلثوم
والمهلهل ، فيكثر من ذكر أسماء الرجال وموقع القتال ، ويعمل فخره قومياً أكثر
منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبي .
فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تزخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ
فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشيء الكثير . ولا يخلو فخر
أبي فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلو من اللطف الذي يسمو به عن
الفخر الصبياني . وأبو فراس صادق العاطفة ، مندفع الحماسة وإن كان
ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال
الرجل وما أثر قومه وأجداده .

الشريف الرضى :

أما الشريف الرضى فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره في
الفخر قوله :

لِيَغَيِّرَ الْعَلَى مِنِّي الْقَلِيلِ وَالْتَّجَنَّبُ	وَلَوْ لَا الْعَلَى مَا كُنْتُ فِي الْحُبِّ أَرْغَبُ
إِذَا اللَّهُ لَمْ يَعْلِدْكَ فِيمَا تَرُومُهُ	فَمَا النَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ وَمُوْتَبُ
مَلَكَتْ بِحِلْمِي قُرْصَةً مَا اسْتَرْقَهَا	مِنَ الدَّهْرِ مَفْتُولُ الدَّرَاعِينَ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنَى مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا
فَحَسْبِي أَنْسَى فِي الْأَعَادَى مُبْغَضُ
وَلِلَّحِلْمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا
يَصُولُ عَلَى الْجَاهِلُونَ ، وَأَعْتَلَى
يَرُونَ أَحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
وَأَعْرِضُ عَنْ كَأْسِ النَّدِيمِ كَأَنَّهَا
وَقُورٌ فَلَا أَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزَمَتِي
وَلَا أَعْرِفُ الْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَصْفِهَا
تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ الْقَوَارِصِ شَيْمَتِي
لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ الْجَهْلُ بِالْحِجَتِي
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي
غَرَائِبُ آدَابِ حَبَانِي بِحِفْظِهَا

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا
هو في دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ،
وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق
لأجله ، وإذا في نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة في وجه الزمان الذي
يعادى الأحرار ، وفي وجه الناس الذين يقومون في وجه كل عزيز طموح .
ويتجلى لنا الشريف حزيناً في قرارة نفسه ، متألماً في أعماق قلبه ، وذلك أنه
لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسرا الجريح ،
وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتصع فيها الشرر ، وبقلب جرىء لا يخاف سيلاً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة أبية ، وقلب رقيق شديد الانفعال ، وثاب إلى المعالي ، نباض في وجه الظلم ، جرى على رفته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هي أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبي في فخره ، فجاراه في نفحته الملحمية ، ونبضاته التوثبية ، وترفعه عن كل حقير دنى ، وإنه وإن لم يبلغه في قوة انطلاق شعره ، وفي سكه للأبيات سكاً شديداً الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعي ، ما لم يتوفر لأبي الطيب ، ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفي ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به . ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل في العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالى في سمائها ، ويعرق بين أوراقها في عشق ووله ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتدوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالمجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، في كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، وبجو ملحمي يحاول الشاعر أن يضحكم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتثثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن في نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعدوبة أخاذة ، وعمق في التفكير ، وبعد في الملح . وتعجبك من الشريف صراحته وجراته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . و يروقك اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه
لأبياته ، فهي بدوية حضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعري :

وأبو العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد في الفخر أشهرها
قصيدتان : الأولى همزية ومطلعها :

ورائي أمامُ والأمامُ وراءُ إذا أنا لم تكبرني الكبراءُ

والثانية لامية ومطلعها :

ألا في سبيلِ المجدِ ما أنا فاعِلُ عفافٍ وإقدامٍ وحزمٍ ونائلُ

والشاعر يفخر بنفسه ويقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة
وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ،
وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس إلى معروفهم .

وأبو العلاء يكاد ويجهد في البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته
وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بنزعات
شخصيته القوية ولا يتخرج من المبالغة في التمدح . ويتأتى له في موقفه هذا أبيات
حكيمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلي على الثروة
المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان في لبسِ الفتى شرفٌ لهُ فما السيفُ إلَّا غمْدُه والحمائلُ

الطغراني :

أما الطغراني فله في الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطلِ وحليّةُ الفضلِ زانتني لدى العطلِ
مَجْدِي أخيراً ومَجْدِي أولاً شرعُ والشمسُ رأداً الضحى كالشمسِ في الطفلِ

فيمَ الإقَامَةُ بِالزُّورَاءِ لَا سَكْنِي فِيهَا وَلَا نَاقِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب في الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طوايا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التي لا تذللها الصعاب ولا تلوى بها الأيام ، في انطلاق شعري مملوء بالإبداع .

الفخر الذاتي بعد العهد العباسي

وصل الفخر الذاتي سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظلّه شيئاً فشيئاً ويتضاءل في العصور المتأخرة . لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي الشخصي . ولئن سمعت له أصداً من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة في غير انطلاق ولا عمق .

الفصل الثاني

الفخر الحزبي

نما هذا النوع من الشعر في العهد الأموي ، وقد اصطبغ بصبغة السياسة ، وذلك أنه لما بويع على بن أبي طالب وقع خلاف سياسي شديد في شأن الخلافة ، وقد اتهم على بتراخيه في القبض على قتلة عثمان بن عفان ، وقام في وجهه ابن الزبير يناصبه العداوة ، كما قام في وجهه معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع في الملك ، وقام في وجهه على ومعاوية حزب الخوارج يحارب هذا وذاك . وهكذا انقسم العرب أحزاباً ، فمن شيعة يناصرون بيت على ، إلى زبيريين يشايعون آل الزبير ، إلى خوارج ينهضون في وجه الاستبداد ، إلى أمويين على عرش الخلافة يذودون عن سلطانهم بشدة ، وهكذا كان لكل حزب شعراء يساندونه بأقلامهم ، وكان شعرهم حماسياً شديداً اللهجة لأنه شعر العواطف المتناحرة في سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . ومن أولئك الشعراء قطري ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ، وعمرو بن الحصين للخوارج ، والكميت الأسدي وكثير عزة للشعبة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات للزبيريين ، وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة والناطقة الشيباني وعدى بن الرواح وكعب الأشقرى للأمويين .

وإلى جنب هؤلاء جميعاً ثلاثة شعراء هم في الذروة لذلك العهد ، أعنى بهم الأنخل والفرزدق وجريراً . وإنهم ، وإن لم يكونوا من شعراء السياسة بكل ما في الكلمة من معنى ، لتغلب العصبية القبلية عليهم ، قد عاشوا في ظل بني أمية واتصلوا بالأحزاب السياسية ورأوا فيها وسيلة يتذرعون بها للوصول إلى غايتهم القبلية ،

ثم إنهم في ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذاتي بالفخر الحماسي والفخر الحزبي ولذلك لم نر بأساً في التعرض لهم في هذا الباب .

ولإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبي في هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكي المحاسني إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابي وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموي ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع في اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الخيش تمور في حومة الوغى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدأ يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يمضى على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبى من يقول قصيدة أو أبياناً في ذم خصومه في الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً في وقية ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟ » .

١ - شعر الخوارج :

شعر الحرب عند الخوارج صورة ثورة دينية عنيدة ، وصورة شجاعة جبارة ؛ هو شعر كتب بشفار السيوف ، ورؤوس الرماح ؛ هو شعر الاستماتة في سبيل الغاية المثلث التي يناضلون لأجلها ، والتي يحسمونها في قولهم أبداً : « لا حكم إلا لله ! » وقطرى بن الفجاءة هو ذلك الشاعر الذي يضطرم شعره حماسة وإقداماً ، وهو الذي خاض المعارك في بطولة ما بعدها بطولة ، وقد اشترك في حرب « دولاب » التي جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، والتي دامت عشرين يوماً . وقد انتصر الخوارج انتصاراً عظيماً ، فقال ابن الفجاءة ذاكراً زوجته أم حكيم وواصفاً الحرب :

لعمرك إننى في الحياة لزاهدٌ وفي العيش ما لم ألقَ أمَّ حكيم ..
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتُ طعاناً فتى في الحرب غير ذمير
غداة طغَتْ في الماء بكر بن وائلٍ وعجنا صدور الخيل نحو تميم

هكذا كان قطرى بن الفجاءة : عقيدة ثابتة ، وشجاعة فوارة . فهو رجل تدين ، وهو رجل حرب ، وشعره حافل بالروح « التي تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال » لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى . أما عمرو بن الحصين فهو من شعراء الخوارج أيضاً وقد شهد يوم قديد - وهو مكان بالقرب من المدينة - ووصف الخوارج في حربهم تلك .

ب - شعر الشيعة :

كان أهل الشيعة في شعرهم الحربى أقل فروسية من الخوارج ، وكانوا ذوى ثورة وطمع في الخلافة ، ولذلك وجه إليهم بنو أمية أشد ضرباتهم . وشعر الشيعة

هو شعر السخط والحزن ، وهو يرمى إلى الجهاد في سبيل الخلافة ، وذلك في أسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والركة والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج أو الغضب أو الألم .

وللكميت بن زيد الأسدي الشاعر الشيعي في هاشمياته قصيدتان رائعتان في الحرب ، قال في إحداهما واصفاً أبطال شيعته :

فَهُمُ الْأَسَدُ فِي الْوَعْيِ لَا اللَّوَاتِي بَيْنَ خَيْسِ الْعَرِينِ وَالْآجَامِ
أَسَدُ حَرْبٍ غِيُوْتُ جَذْبٍ بَهَالِيهِ لُ مَقَاوِيلُ غَيْرِ مَا أَفْدَامِ
سَادَةٌ ذَادَةٌ عَنِ الْخُرْدِ الْبِي نَحْسُ إِذَا الْيَوْمُ بَصَارَ كَالْأَيَّامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ سَلِيْمَانَ يَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ

ح - شعر الزبيريين :

لقد أنكر الزبيريون على بني أمية جعلهم الخلافة وراثية فيما بينهم دون سائر قريش . وكانوا من العاملين في سبيل الأرسقراطية .

وشعر ابن قيس الرقيات حافل بوصف قتال الزبيريين وإقدامهم ، حافل بوصف بطولته ، مملوء بالحماسة والفروسية . قال يمدح ابن الزبير وأخاه مصعباً :

وَالزُّبَيْرُ الَّذِي أَجَابَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكَرْبِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءُ
وَالَّذِي نَبَّغْصَ ابْنَ دُومَةَ مَا تَو حَى الشَّيَاطِينِ ، وَالسَّيُوفُ ظِمَاءُ
فَأَبَاحَ الْعِرَاقَ يَضْرِبُ بِالْمُنْدِ صَمِلَ صَلْتًا ، وَفِي الضَّرَابِ غَلَاءُ
إِنَّمَا مُصِيبُ شَهَابٍ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

ولما فر الشاعر من وجه بني أمية والتحق بفلسطين نازلاً على أهل له من
 بني كنانة ، نظم قصيدة استهلها بالغزل ثم فخر بقومه وفروسيته ، قال :
 حَلَقُ من بني كِنَانَةٍ حَوْلِي بِفِلَسْطِينَ يُسْرِعُونَ المَكُوبَا
 من رجالِ تُفَنِّي الرجالَ وَخَيْلِي رَجُمَ بِالقَنَا تَسُدُّ الغُيُوبَا
 لَا يُبَالُونَ مَنْ أَقَامَ إِذَا مَا كَشَفُوا بِالسُّيُوفِ يَوْمًا عَصِيْبَا
 إِنَّ قَوْمَ الْفَتَى هُمُ الْكَنْزُ فِي دُنْ يَاهُ وَالْحَالُ يَسْرِعُ التَّقْلِيْبَا ..

إلى غير ذلك مما حفلت به قصائد الشاعر ومما يطلعنا على موقفه وهو القرشي
 الأصل ، الزبيرى الهوى ، الذى مدح عبد الله بن الزبير فى حربه وفى سلمه ، والذى
 أراد لقومه العزة والسلطان ، وصارح بنى أمية العداوة ، وكان بوقاً مدوياً على
 كل حال .

د - شعر الأمويين :

رأى الناس فى الأمويين رجال سياسة ، وطلاب دنيا وملك ، اعتمدوا على
 قوة السيف والمال والعقل فى تأييد عرشهم ، فجنح إليهم الشعب طمعاً فى ما لهم
 أو خوفاً من بأسهم . وكان أكثر الشعراء المنتمين إلى حزبهم من ذوى المنفعة ،
 الذين يمدحون ملوكهم لأجل الطمع أو الخوف ، وليس فى شعرهم كثير جدّة من
 الناحية الفنية ، فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم ، والحلم ،
 وحسن السياسة ، والمجد القديم ، والحظ المواتى وما إلى ذلك . ومن أخلص الشعراء
 عاطفة لبني أمية كعبد الأشقرى ، الذى كان من أعظم وصافى الحرب فى العصر الأموى .

* كعب الأشقرى : هو من الشعراء الفرسان الذين اشتركوا فى الفتح وشهدوا
 حروب الأزارقة . وقد نظم قصيدة مشهورة وأنشدها فى حضرة الحجاج لما تغلب
 المهلب بن أبي صفرة على الخوارج . وهى قصيدة تقع فى أربعة وثمانين

بيتاً ، وتدور كلها حول الحرب ووصف القتال تتبع فيها الشاعر جيش بني أمية
وجيش الخوارج في مختلف المواقف ، في لهجة حماسية شديدة ، وإليك
شيئاً منها :

يا حفص إني عدائي عنكم السفر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية
واشتدت الحرب والبلوى وحل بنا
تلبسوا لقراع الحرب بزتها
ساروا بالوية للمجد قد رفعت
قتلى هنالك لا عقل ولا قود
باتت كتائبنا تردى مسومة
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا
لاقوا كتائب لا يخلون ثغرهم
صفان بالقاع كالطودين بينهما
يمشون في البيض والأبدان إذ وردوا
وشيخنا حوله منسا مللمة
ندوسهم بعناجيج مجففة
في معرك تحسب القتلى بساحته
في كل يوم تلاقى الأزد مفضة

وقد أرقن فأذى عيني السهر
والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
أمر تشمر في أماله الأز
فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
وتحتهن ليوث في الوغى وقر
منا ومنهم دماء سفكها هدر
حول المهلب حتى نور القمر
بكازون فما عزوا ولا ظفروا
فيهم على من يقاسى حربهم صعر
كالبرق يلتمع حتى يشخص البصر
مشى الزوامل تهدي صفهم زمر^(١)
حي من الأزد فيما نابهم صبر
وبيننا ثم من صم القنا كسر^(٢)
أعجاز نخلي زفته الريح ينقعر
يشيب في ساعة من هولها الشعر

(١) الزوامل : الإبل المحملة .

(٢) المناجيج : جياذ الخيل والإبل .

والأزد قوى خيارُ القومِ قد علموا إذا قرومهم يوم الوغى خطروا
 حتى بأسيافهم يبغون مجدهم إن المكارم في المكروه تبتدر
 لولا المهلب للجيش الذى وردوا أنهار كرمان بعد الله ما صدروا

ويمضى كعب الأشقرى فى ملحمة هذه ، وإذا أنت أمام حرب طاحنة
 يشيب لها الشعر ، وقد التقى الجيشان فى زرد الحديد ، وفوقهم البنود خفاقة ،
 وتحتم الخيول المطهمة . والجيشان طودا قوة وشجاعة وبأس . ولما اعتصم
 الخوارج وراء الجسر ، جاز إليهم الأمويون ، فالتحم القتال ولعت السيوف ،
 وانقض الهول انقباض الصواعق ، وجرت الدماء سيولاً ، فانسحل الخوارج
 من المعركة ، فاتبعهم جيش بنى أمية ، وعاد القتال إلى الالتحام ، واشتدت
 الحال على الخوارج ، فهلك منهم عدد كبير ولاذ الباقون بالفرار .

وهكذا كان الأشقرى من أعظم وصافى الحرب فى العهد الأموى ، وهكذا
 كانت قصيدته من أروع القصائد الحربية لأنها جمعت الاستيفاء ، إلى الدقة ،
 إلى التدفق والانطلاق ، إلى الواقعية المضخمة تضخيم ملحمة لا يخرج عن
 حدود المعقول ، إلى تفصيل مواقف الجيشين وتتبع حركاتهما فى لهفة وصدق
 عاطفة ، إلى الاعتراف بمناعة صفوف الأعداء وحسن بلائهم فى الطعان .

ولئن فخر الأشقرى بقومه الأزد فإنه كان من الشعراء النادرين الذين أخلصوا
 العاطفة لبنى أمية فصدقوا فى وصف حروبهم ، ومدحهم بما كانوا له أهلاً من
 الفعال والحصل الحميدة .

هـ - شعر المثلث الأموى :

وهناك شعراء ثلاثة عرفوا بالمثلث الأموى ، وكان مدار فخرهم حول الذات

والقبيلة والحزب .. وهم الأخطل والقرزدق وجريير .

والحزب والقبيلة في شعر الأخطل محل واسع ؛ أما الحرب فقد أتى منها على ذكر عدة مواقع كانت لقومه على أعدائهم . ذكر يوم الثرثار - وهو واد عظيم في الجزيرة السورية يمدّه الماء في الشتاء - وقد دارت رحى القتال فيه بين بني تغلب وقبائل القيسية ، وكان يوماً شديداً الوطأة ، يوماً أربدت سماؤه ، وانتشر الموت في صفوف المتقاتلين انتشاراً عظيماً ، وجرت الدماء على الأرض سيولاً ، وأثبت كل بطل في مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر . وذكر الأخطل يوم « إراب » وكان النصر فيه لقوم الأخطل على القيسية وقوم جريير ، فقال :

ولقد سما لكم الهذيل فمالكم	بإراب حيث يقسم الأنفالا (١)
في فيلق يدعوا الأراقم لم تكن	فرسانه عزلاً ولا أكفالا (٢)
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما	خالطن من عمل الوجيف سلالاً
فسمقين من عادين كأساً مرة	وأزلن حد بني الحجاب فزالاً
فأنعق بضائك يا جريير فإنما	منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

وأما فخر الأخطل فقد اصطبغ بالصبغة السياسية ، وهو يدخل في المدح والهجاء مظهراً لبني أمية ما لتغلب من الأيادي البيض ، ومظهراً ما لصاحبه من كرم الأصل ومن التفوق على خصمه . واصطبغ فخر الأخطل أيضاً بالصبغة الجاهلية التي تعتمد تعداد الأجداد القبلية في النفس ، والتي لمسناها في شعره الحزبي قال :

(١) الهذيل : هو الهذيل بن هيرة التغلي .

(٢) الأكفال ج كفل وهو الرجل يكون في مؤخر الحرب همته التأخر والفرار .

بَنَى أُمِيَّةٌ قَدْ نَاضَلَتْ دُونَكُمْ أَبْنَاءَ قَوْمٍ هُمُ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا ^(١)
 أَفَحَمَّتْ عَنْكُمْ بَنَى النَّجَارِ قَدْ عَلِمَتْ عَلِيًّا مَعَدًّا وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا ^(٢)
 حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مِنْنَى عَلَى مَضَضٍ وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الْإِبْرُ

أما فخر الفرزدق فقد قيل فيه :

« ديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه ، وتمجيداً
 غالباً ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مدحهم والفخر بهم فخراً
 لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يغرف من
 بحر تملؤه أبحر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تنعقد شعراً على
 هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله » .

والفرزدق يجعل قصائد الهجو في جو وسيع من الفخر والتبجح ، وقد
 يفتتحها بالفخر . فيأتي خصمه أبداً من عل ، ولهذا قيل : « الفرزدق إذا هجا
 ارتفع » . يرتفع على جرير خصوصاً ، وكان جرير من أحقر بيوت تميم ،
 والفرزدق من أشرفها ؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه تعالى عليه ، ووازن بين
 الشرف والحقارة ، وأخذ بتعداد آبائه وأجداده ، مفصلاً ما ثرهم في الجاهلية
 والإسلام . وهكذا كان قومه في نظره أعز العرب بيتاً ، وأرفعهم شرفاً ، وأوسعهم
 خيراً وكرماً . هم ذوو العقول التي توازي الجبال ، والثبات الذي لا يتزعزع ،
 والشجاعة التي تفوق كل شجاعة . . . وهكذا كان هو في نظر نفسه كريماً
 كالبحر ، شجاعاً كالأسد ، رقيقاً كالبدن ، مؤثلاً كالحية ، قد ورث الشعر
 من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والأعشى وغيرهم من كبار الشعراء .

(١) يعني الأنصار .

(٢) بنو النجار : قوم من الأنصار منهم الشاعر حسان بن ثابت . عليا معد : يريد بني قريش .

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه ، واشتدت لهجته ، وطال نفسه ، وقويت عبارته ، ولكنه يضطرب في ميدان قلما يتبدل ، ويأتى بمعان قليلة التنوع .

وقد مزج جرير المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر الأيام ، وأكثر من وصف الخيل وتصوير الفروسية .

وهكذا فخر جرير بسيفه ولسانه ، وإذا سيفه أمضى السيوف وإذا لسانه شديد الوطأة :

جَرَى الْجَنَانِ لَا أَهَابُ مِنَ الرَّدَى إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وليس لسيفي في العظام بَقِيَّةٌ وللسيف أشوى وقعة من لِسَانِيَا

هذا هو سيف جرير ، وهذا لسانه ، وللسيف عنده أنجع من اللسان في رقاب جماعة أضاعوا الشرف ، وأضاعوا كل إحساس أمام كلمة تُقال ، ولوم يوجه ، وهجاء ينشر . وسيفه بتار يمدد قلب جرى ، وساعد شديد ، ونفس لا تهاب الموت .

وهكذا فخر جرير بشاعريته التي تنقض على الشعراء بالصواعق فتريدهم صفوفاً صفوفاً ! وفخر بإسلامه ومضريته — وفي مضر النبوة والخلافة — ، وتعالى بهما على الأخطال التغلبي وقال :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِيًّا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِينَا

وإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصله ، وأصل الفرزدق من أصله ، وكلاهما من تميم ، وتميم أصل كريم ، وشجرة باسقة الأغصان ، وفروة من ذرى المجد :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

إلا أن لَتَمَّ فرؤعا عدة ، وفرح الفرزدق أشرف من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع جرير أن يطاول الفرزدق في الآباء والأجداد ، ولم يستطع أن يكون معه في هذا الميدان جولات واسعة ، فاكتفى بذكر بعض الأيام التي كانت لبني يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها قومه بنو دارم وأخواله بنو ضبة .

وإذا هجا جرير الأخطل ذكر حروب قومه وهم حلفاء القيسية وذكر مواقعهم مع بني تغلب وقال :

ونعرف حقَّ النّازلين ولم يزلْ فوارسنا يحمون قاصية السّربِ
على مقرّباتٍ هنَّ معقِلُ من جنى وسمّ العدى والمنجياتُ من الكربِ
ألا ربَّ جبارٍ وطِئَ جبينه صريعاً ونهب قد حوين إلى نهبِ
وقد أوردت قيسٌ عليك وخدلفُ فوارس هدّ من الحياض التي تمجى

أما فخر جرير فكان استعلاء وتعييراً ، وكان ممزوجاً بالهجاء ، وكان انقضاضاً صاعقاً مدوياً ، يحفل بالعاطفة الصاخبة القوية ، وتعصف به موسيقى حربية أخاذة .

* * *

تلك كانت مظاهر الفخر في العهد الأموي ، وقد تطاحنت فيه الأحزاب تطاحناً شديداً ، وإن من تتبع الشعر العربي في هذا العهد يجده شديد الاقتراب من الشعر الجاهلي في خقل الحماسة والفخر ، شديد التروّع إلى ذكر الأيام وتعداد الأجداد ، وهو إلى ذلك قد امتاز بانثاع الآفاق الاجتماعية والسياسية والدينية ، وازداد غلواً وإغراقاً في وصف الحروب وأدواتها ، وازداد تتبعاً لحركات الجيوش ، كما ازداد نزوعاً إلى التعبير بالغازي ، والإقذاع في ذلك التعبير .

الفصل الثالث

الفخر الديني

أو الحماسة الدينية

لما جاء الإسلام ضم العرب تحت لواء واحد ، ودعاهم إلى بسط سلطانه ، فكانت الخطوة الأولى في ذلك « غزوات » الرسول (صلعم) ، ثم كانت الخطوات الأخرى حروب الفتح ، وكان الميدان واسعاً جداً يمتد من شبه الجزيرة ، إلى مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى فارس ، إلى أوربة ؛ وكان الأبطال ورجال الحرب والسياسة كوكبات كوكبات ! وكان العراك شديداً ، والجيش جرارة ، وكان الشعر ينطلق مدوياً ، وهو لا يختلف في شيء عن الحماسة الجاهلية إلا في مصدره الديني ، وصبغته الدينية الجديدة ، وخروجه عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية الإسلامية .

ومما يروى في هذا الصدد أن عياض بن غنم كتب إلى خالد بن الوليد يستنجد به حين كان يحاصر « دومة الجندل » ، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبِثُ قَلِيلًا تَأْتِيكَ الْحَلَائِبُ يَحْمِلْنَ آسَادَ عَلَيْهَا الْقَاشِبُ^(١)

كُتَائِبٌ تَتْبَعُهَا كُتَائِبٌ

ولما تغلب المثنى بن حارثة الشيباني ، في عهد عمر بن الخطاب ، على الفرس

(١) الحلائب : النوق . القاشب : السيف الصقيل .

في موقعة « البويب » بالعراق ، وقتل مهران قائدهم ، قال الأعور المشنئ مشيداً
ببطولة المشي بن حارثة :

هاجَتْ لَأَعُورَ دَارُ الْحَيِّ أَحْزَانَا وَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ هَمْدَانَا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعٌ إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتَلَى جُنْدَ مِهْرَانَا (١)
أَزْمَانَ سَارَ الْمَشْنَى بِالْخُيُولِ لَهُمْ فَقُتِلَ الْقَوْمُ مِنْ فُرْسٍ وَجِيْلَانَا
سَمَا لِأَجْنَادِ مِهْرَانٍ وَشِيعَتِهِ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَشْنَى وَوَحْدَانَا
مَا لَنْ رَأَيْنَا أَمِيرًا بِالْعِرَاقِ مَضَى مِثْلَ الْمَشْنَى الَّذِي مِنْ آلِ شَيْبَانَا
إِنَّ الْمَشْنَى الْأَمِيرُ الْقَرْمُ لَا كَذِبُ فِي الْحَرْبِ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَانَا (٢)

وفي يوم « مؤتة » ، وقد قاتل العرب قوماً يفوقونهم عدداً ، واستماتوا في ساحة
الحرب بل مات أبطالهم جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يحمل راية
المسلمين ، وقف عبد الله بن رواحة يقول وفي يده الراية :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُسْكِرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدَّوْا الرِّثَّةَ مَا لِي أَرَاكِ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ ضَلَّيْتُ
وَمَا تَمَنَّيْتُ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ
ثُمَّ ظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى قَتَلَ .

وفي يوم القادسية نسمع أبا محجن الثقفي يتغنى بحسن بلائه ويقول :

(١) النخيلة : مكان بالعراق قرب نهر البويب .

(٢) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

لقد عَلِمَتْ ثَقِيفٌ ، غيرَ فَخْرٍ ، بأنَّا نحن أكرمُها سيوفًا
وأكثرهم دروعًا سابغاتٍ وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفًا
فإنَّ أَحَبَّسَ فذلَّكمُ بلائِي وإن أترك أذيقهم الحتوفًا

وهكذا نسمع الشعر يملأ الأجواء متغنياً بانتشار الدين الحديد ، في لهجة
حافلة بعزة النصر ، والإيمان الحى ، والشجاعة المقعدة على العقيدة الثابتة . وإن
في ما وجه إلى الرسول (صلعم) من مدائح ، روائح فخرية حماسية تهز النفوس
والقلوب هزاً .

ومن ذلك قول النابغة الجعدي :

خليلاً عوجاً ساعةً وتهجراً ونوحاً على ما أحدث الدهر أو ذراً
ولا تجزعا إن الحياة ذميمةٌ فخفاً لروعات الحوادث أو قراً
وإن جاء أمرٌ لا تطيقان دفعه فلا تجزعا ممّا قضى الله واصبراً
ألم تر يا أن الملامة نفعها قليلٌ إذا ما الشيء ولى وأدبراً
تهيج البكاء والندامة ثم لا تغير شيئاً غيرَ ما كان قدراً
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيراً
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنْتُ من النار المخوفة أخذراً

ومنها في الفخر :

ولنا لقومٌ ما تعود خيلنا - إذا ما التقينا - أن تحيد وتنفرا
ونُنكر يومَ الرّوع ألوانَ خيلنا من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا!

بلغنسا السماء مجدنا وجدودنا وإنما لندرجو فوق ذلك مظهرها
 ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرها
 ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلم إذا ما أورد الأمر أضدرا

* * *

وإننا نستطيع أن نضيف إلى هذا الفخر الديني ما نظمه الشعراء على ممر
 العصور من المدائح النبوية وما إلى ذلك ، من مثل البردة للبوصيري ونهج البردة
 لأحمد شوقي ، وإنما نلمس في تلك القصائد من الحماسة الدينية الصادقة ومن
 الروعة الشعرية والبيانبة ، ما يجعل لتلك القصائد محلاً مرموقاً في عالم الأدب .

الفصل الرابع الفخر الحماسي

فطر العربي على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع في سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزون وطوراً غازون . وهم في كل حال جماعة جلاد وقتال ، يقوم فيما بينهم من يهوق لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويبث الحماسة في صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسي . وهذا الشعر الحماسي نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة في سبيل المدنية والوعي ، يصور دامي الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، في قصص مملوء بالحياة ، وفي وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأجداد القومية ، وخلال العظمة التي ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلائمة اليونان إلياذة هوميروس وأوديسة ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إيناس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الراماياتا للشاعر فالميكي في ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولهم أيضاً ملحمة المهابارتا في نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامه الفردوسي وهي سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النيبيلونغايد وهى من آثار القرن الثالث عشر للميلاد ، وقد دارت حول بطولات الفتى المغوار سيغفريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسيين ملحمة رولان التى ضمت مجد فرنسة فى عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأمجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشئوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفى وحدة عمل قصصى ، وفى وحدة هدف وغاية ، ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقتهم وراء التخيلات الميثولوجية والخرافى الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التى تطلب جلداً وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المنال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعيش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب فى خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثبين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التى تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة للملاحم الأهم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك فى وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شتاتها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الجوار والموضوع الواحد . ولو أتيح لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنبرة الفوارس ، وجساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم ، وغيرهم أشباه آشيل وأغا ممنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند
الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حد قول زكى المحاسنى — « وإن في المعلقة الجاهلية
العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية
كبرى قيلت في الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون
متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو
صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات في معان جاء
بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هي ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها
فحسب ، وإن في وحدة معاشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق
الرميل بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر
وفي الوبر ، لما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم
ونواظيرهم ، وضروب تصوراتهم ، مع اختلاف قليل في أساليبهم . على أن البصير
في أساليب المعلقة العشر ، واجد فيها شبيهاً في النسيج والمعنى ، مما يساعد على
الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للملحمة عربية جاهلية . . .
تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فللعرب
في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قل مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفي تشمير
الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التي ما حفلوا معها الموت ،
ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم أو تقدمتهم في الزمن . . .
ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم
الحربي الذي نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ،
قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من
غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم ،
وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع
سلطانهم في أواخر العصور . »

الحماسة في الجاهلية

(١) دواعي الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسي في الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوي وليد الصحراء يعيش في أكنافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء وهيب الرضاء ، أمل عيشه في أنعام يضطرب في الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروي عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان في مجاهل يرتعش كلؤها في سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكأ هاجمه ؛ وإذا هنالك كر وفر ؛ وإذا هنالك جلاذ وصراع ، ودماء تسيل معها الأرواح ! وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ! وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال ، وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق ألسنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعي الشعر الحماسي أن البدوي شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكي بذلك القرائح ، ففاض الشعر في أسلوب ملحمي هدار .

وهكذا كان الداعي إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمي الذي رافق تاريخ العرب في مختلف أطواره . وهكذا أخيراً كانت أيام العرب في الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهي ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين

والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ،
وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد
التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب فى بطحاء ذى قار ، وذوقار ماء لبكر قريب
من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربى ، ومن ألف من
الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ،
ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بنى عجل فى
الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بنى شيبان فى الميسرة وعليهم بكر بن يزيد
ابن مسهر ، ومن أفناء بكر فى القلب وعليهم هانىء بن مسعود . وقد دارت
الدائرة على الفرس ، وقد اتبعهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا
على من قضوا وشردوا من شردوا . ومن الأناشيد الحربية والأراجيز الحماسية التى
تناشدها العرب فى ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال ، ما قالته امرأة
من عجل من بنى شيبان :

لِنْ تَهْزِمُوا نُعَانِقُ وَنَفَرِشِ النَّمَارِقِ^(١)
أَوْ تَهْزَمُوا نَفَارِقُ فَرَاقَ غَيْرِ وَامِقُ

إلى غير ذلك من الشعر الذى ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ،
مواقف الشدة وحركات الهجوم ، ومضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ،
وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شئ بمقاطع
الإلياذة ، فى وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشهرها يوم حليلة للحارث الأعرج بن

(١) النمارق ج نمرقة وهى الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرجل .

جبله ، ملك العرب بالشام ، على المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، ملك العرب بالخيـرة .
وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حجر لبنى أسد على حجر
والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة في كتب
الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية في أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التي دارت بين بكر وتغلب
ابنى وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وإن في حرب البسوس من المواقف ، وإن
فيها من الشعر ما هو أشبه شيء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب
البسوس — على حد قول سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة — « حرب تناقل
العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها
بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة . ومع هذا فإن
جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصى منه إلى
الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتزمة
لفقدان اللحمة بينها ، فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها ، وبقيت
ملقاة في أرضها غير مرصوفة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ،
رأيتم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جلييلة ، وأخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذى شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التي قيلت في حرب البسوس قول
مرة مخاطباً ابنه جساس :

فإنَّ تلكُ قد جنيتَ علىَّ حرباً تغصُّ الشيوخُ بالماء القراحِ
جمعتُ بها يديك على كليبٍ فلا وکیلٌ ولا رثُ السِّلَاحِ^(١)

ولكننى إلى العَلَاتِ أَجْرِي إلى الموتِ المحيطِ . مع الصَّبَاحِ (١)
 وإننى حين تَشْتَجِرِ العَوَالِي أعيد الرُّمَحَ فى إثرِ الجِرَاحِ (٢)
 شديد البأسِ ليس بذى عِيَاءٍ ولكننى أبوءُ إلى الفَلاحِ
 سألَ بس ثوبَها وأذُبُّ عنها بأطرافِ العوالى والصفاحِ (٣)
 فما يَبْقَى لِعِزَّتِهِ ذليل فيَمْنَعُهُ من القَدَرِ المَتَاحِ
 فلأنى قد طرِبْتُ وهاجَ شوقى طرادُ الخَيْلِ عارِضَةُ الرِّمَاحِ
 وأَجْمَلُ من حياةِ الدُّلِّ موتٌ وبعضُ العارِ لا يمحوه ماحِ

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بجيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم . فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه المهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفرسه — وكانت تسمى النعامه — فجز ناصيتها وهلب ذنبها (٤) ، ثم قال قصيدة منها :

كلُّ شَيْءٍ مَصِيرُهُ لِلزَّوَالِ غيرَ رَبِّى وصالحِ الأَعْمَالِ
 وترى النَّاسَ يَنْظُرُونَ جَمِيعاً ليسَ فيهم لَدَاكَ بعضُ احتِيَالِ
 قُلْ لِمَ الْأَغْرُ تَبْكِي بُجَيْراً ما أتى الماءُ من رؤوسِ الجِبَالِ
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى بُجَيْرٍ إِذَا مَا جالَتِ الخَيْلُ يومَ حربِ عُضَالِ
 وتساقى الكُمَاةُ سُمّاً نَقِيعاً وبدا البَيْضُ من قِبابِ الحِجَالِ

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى .

(٢) تشتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) هلب ذنبها : نتفه .

وَسَعَتْ كُلُّ حَرَّةٍ - الْوَجْهَ - تَدْعُو
 يَا بُجَيْرَ الْخَيْرَاتِ لَا صَدْحَ حَتَّى
 وَتَقَرَّ الْعَيْنُ بَعْدَ بُكَاهَا
 أَصْبَحَتْ وَائِلٌ تَعَجُّ مِنْ الْحَرِّ
 لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِمَ اللَّهُ -
 قَدْ تَجَنَّبْتُ وَائِلًا كَيْ يُفْهِقُوا
 وَأَشْسَابُوا ذُؤَابَتِي بِبُجَيْرٍ
 قَتَلُوهُ بِشُمُوعِ نَعْلِي كَلَيْبٍ
 يَا بَنِي تَغْلِبٍ خَذُوا الْحَذَرَ إِنَّا
 يَا بَنِي تَغْلِبٍ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْنِي

يَا لِبَكْرِ ! غَرَاءَ كَالْتَّمْثَالِ
 نَمْلًا الْبَيْدَةَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ
 حِينَ تَسْقَى الدَّمَا صَدُورَ الْعَوَالِي
 بِ عَجِيجِ الْجَمَالِ بِالْأَثْقَالِ
 ط. كَلَيْبٍ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلَالِ
 وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِ
 فَآتَتْ تَغْلِبُ عَلَى اعْتِزَالِ
 قَتَلُوهُ ظُلْمًا بِغَيْرِ قِتَالِ
 إِنَّ قَتَلَ الْكَرِيمِ بِالشُّمُوعِ غَالِ
 قَدْ شَرِبْنَا بِكَاسِ مَوْتٍ زُلَالِ
 مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فِي الْعَوَالِ
 لَقِحَتْ حَرْبَ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ (١)
 لَيْسَ قَوْلِي يُرَادُّ لَكِنْ فَعَالِي
 جَدُّ نَوْحِ النِّسَاءِ بِالْإِعْوَالِ
 شَابَ رَأْسِي وَأُنْكَرْتُنِي الْعَوَالِ
 لِّلْسَرَى وَالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ
 طَالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَالِي الطُّوَالِ
 لَاعْتِنَاقِ الْأَبْطَالِ بِالْأَبْطَالِ

(١) عن حِيَال : أَيْ أَنَّ حَرْبَ وَائِلٍ هَاجَتْ بَعْدَ سَكُونِ .

قرباً مربطاً النعامة منى	وأعدلاً عن مقالة الجهال
قرباً مربطاً النعامة منى	ليس قلبي عن القتال بسال
قرباً مربطاً النعامة منى	لما هب ريح ذيل الشمال
قرباً مربطاً النعامة منى	لبجير مفكك الأغلال
قرباً مربطاً النعامة منى	لكريم متوج بالجمال
قرباً مربطاً النعامة منى	لا نبيع الرجال ببيع النعال
قرباً مربطاً النعامة منى	لبجير فداه عمى وخالى
قرباً لها حتى تغلب شوساً	لاعتناق الكمامة يوم القتال (١)
قرباً لها وقرباً لأمتي دِرْ	عاً دلاًصاً ترد حدة النبال (٢)
قرباً لها بمرهفات حداد	ليقراع الأبطال يوم النزال
سائلوا كندة الكرام وبكراً	واسألوا مدحجاً وحى هلال
إذ أتونا بعسكر ذي زهاء	مكفهر الأذى شديد المصال (٣)
فقريناه حين رام قراناً	كل ماضى الذباب عصب الصقال (٤)

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان بادی النحل في بعض أجزائه ، هو شعر الحرب بكل ما في الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضبة البدوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم في فورة البأس ،

(١) الشويس ج أشوس وهو الجرى .

(٢) الدرع البلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذي زهاء : ذى عدد كبير .

(٤) ذباب السيف : حده .

والبأس في انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » في رواية السيد لكورنيل المسرحى الفرنسى الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعرى في مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة في تدافعها الحربى ، الموقعة على نبضات القلب ، والتي تحمل في طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فن أشهرها يوم ذى طلوح لبنى يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهى حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالات وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . وهذه الحرب روايات كثيرة في كتب الأدب منها أن الورد العيسى زار يوماً حذيفة بن بدر اللبباني ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مبراً . فقال له حذيفة : فعند من الجواد المبر ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهننى عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأنتى . ثم إن ورداً العيسى أتى قيس بن زهير وقال : إني قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأنتى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالي من راهنت غير حذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك — ما علمت — لأنك .

ثم ركب قيس حتى أتى حذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوت لأوضحك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقه (١) . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلا الرهان . فقال قيس : أحيرك

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلي ، فلي خلتان ولك الأولى . وإن بدأت
فاخترت قبلك فلك خلتان ولي الأولى . قال حذيفة : فأبدأ . قال قيس : الغاية
من مئة غلوة^(١) . قال حذيفة : فالمضمار^(٢) أربعون لياة ، والمجرى من ذات
الإصا^(٣)د .

ففعلا ووضعوا السبق على يدي أحد بني ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا
الخيل ، فلما فرغوا استقبال الذي ذرع الغاية بينهما من ذات الإصا^(٣)د . فأنتهى
الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذي يرد
ذات الإصا^(٣)د ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملأوا
البركة ماء ، وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بني
أسد — وبنو أسد أحلاف ذبيان — في الطريق ، وأمره أن يلتقي داحساً في
الطريق ، فإن جاء سابقاً ردّ وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس
سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدى فلطم
وجهه فألقاه في الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاته الخيل .
وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ،
 واجتمع مع فرسى حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن
الغبراء جاءت سابقة ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك
والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صنع بفرسه . فطالب قيس
بالسبق — وكان عشرين من الإبل — فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضمار : وقت للأيام التي تضر فيها الخيل للسباق أو للركض أو للعدو ؛ وتضميرها
أن تشد عليها سروجها ، وتجعل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ، ويشد لحمها ، ويحمل
عليها غلمان خفاف يحرونها ، لا يعنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ،
ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصا^(٣)د : نقيرة في حجر يجتمع فيها الماء ، وهي في ديار بني عبس .

بنو عيس : أعطونا بعض سببنا . فأبوا . فقالوا : أعطونا جزوراً ننحرها ونطعمها أهل الماء ، فإننا نكره القالة في العرب . فقال رجل من فرارة : لمائة جزور وجزور واحدة سواء ، والله ما كنا لنقر لكم بالسبق علينا ، ولم نُسبق . فكان ذلك سبب دماء فيما بين القبيلتين ، ثم سبب حرب ضروس أبلى فيها عنزة العيسى بلاءً حسناً ، وقد انتهت بصلح قام على يدي الحارث بن عوف وهرم ابن سنان . وقد مدحهما زهير بن أبي سلمى في معلقته التي أتى فيها على ذكر تلك الحرب وويلاتها^(١) .

وأما أيام قيس وكنانة فمن أشهرها يوم الكديد لبني سليم (بطن من فيس عيلان) على كنانة . والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة . ومن أبطال ذلك اليوم الشاعر المشهور دريد بن الصمة . وأما أيام قيس وتميم فمن أشهرها يوم رحرحان لعامر على تميم ، ورحرحان اسم جبل قريب من عكاظ ، ثم يوم شعب جبلة بنجد لعامر على ذبيان وتميم . وقد قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب » وذلك لما اتخذ في هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسديد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ . وقد وصف المعقر البارقى - وكان قد شهد الواقعة - ذلك اليوم المشهود ، وما أتى به الأبطال من جليل الأعمال ، في أبيات منها :

ضربنا جميل البَيْضِ في غمر لجةٍ	فلَمْ يَنْجُ في النّاجين مِنْهُمْ مُفَاخِرُ
هوى زهلم تحت العجاج لعامرٍ	كما أن قنص بازا أقتم الریش كاسرُ
بُفَرِّجَ عناً كُلُّ نَفَرٍ نِخافه	مُشِيحُ كَسِرْحانِ القَصِيمة ضامرُ
وَكُلُّ طُمُوحٍ في العِنانِ كأنّها	إذا اغتمست في الماء فتخاض طائرُ

(١) عن كتاب « أيام العرب في الجاهلية » .

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي في قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن في مؤخرة الجيوش يصفقن بالدفوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر في وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاعية » القائلة :

الخيلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرُّوْعِ إِنَّ هُزِمَتْ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو لَدَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِيهَا

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي في الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون في وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا في وصف أدواتها . فالليادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب في لغط وضوضاء ، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهرق يطلب الثأر ، أو لأن المراعى قد اغتصبت ، أو لأن المواشى قد سيقبت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت في الحى ذلاً وصغاراً . يا للعار ! يا لبنى فلان ! الحرب ! الحرب ! وها هي ذى القبيلة كلها في غضب وثورة ، فالنساء في زغردة ، والأطفال في دمدمة ، والرجال في همهمة ، والصدور في انفجار ، والخيول في صهيل ، تضرب الأرض بالخوافر ، وترفع الرؤوس في عنفوان ، والإبل في هدير وعجيج ، والهواذج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهواذج بدور ، وأناشيد فخرا وعزة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بتارة تحمل في شفاها الموت والدمار ، والعوالى غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى في شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرياح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير ، والأحلاف جماهير جماهير ،
 والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على
 فرس . أخف من النسيم ، فيذهب ويحيى ، ويتفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى
 ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الحوافر ،
 وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخفاف زمزمت تشق الغبار وتملاً الأجواء ،
 يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان في كر وفر ، وإذا الرياح في الصدور
 والنحور ، والسيوف في الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صباغاً
 قرمزيّاً ، وتتناثر على صدور الخيول فتحطم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم
 شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزغردات
 شقّاً . ثم ينجلي الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال
 الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها في عيد ، ثم في تأهب لعراك
 جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة والبأس ،
 ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد في الصدام ، ورجاحة العقل في
 الكر والفر ، والحيلة في مواقف الشدة ، والعفة في تقاسم الغنائم ، والبديهة في
 المآزق الضيقة ، والكرم في كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والخفة
 وشدة الانقباض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والرياح ، ويستحسنون فيها
 الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنين ، وطول الذنب ، واستقامة
 العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب
 بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون لل سيف بلاعه في حز
 الرقاب ، وقصم الظهور ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنانه ، وأنه أزرق
 كأنياب الغول ، يخترق الصدور ويدهى النحور .

(ح) ميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكى المحاسنى : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها .، وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شىء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى ، وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلهما حتى تبلغ نهايتها ، فترك صورة معركة منذ بداءة الواقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يتبين فيها الروح العربى الببانى الذى انطوى ، منذ كان ، على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعراؤها المعارك التى شهدها أوقيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمة الحرب . فحذقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان فى وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصويرها وتصويرها ، حتى ألبسوا بدقاتها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم فى

استنباط التشابيه ، وتوليد أفانيها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب
ولنا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، في أروع بيانها وأبرع تشابيهها^(١) .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلي وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدّوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت للمرء حتف أنفه ، كما بات من غداثهم اليومي أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . ولأنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفي ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطويل .

الفند الزماني :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها في حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بني زمان وعدادهم في بني حنيفة ، فقال :

(١) شعر الحرب في أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ وَقُلْنَا الْقَوْمُ إِخْوَانُ
 عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
 فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
 وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدِّ وَإِنْ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
 مَشِينَا مِشْيَةَ اللَّيْلِ مِثْ غَدَا ، وَاللَيْثُ غَضِبَانُ
 بَضْرَبٍ فِيهِ تَوْهِينُ وَتَخْضِيعُ وَإِقْرَانُ
 وَطَعْنٍ كَفَمِ الزُّقِّ غَدَا وَالزُّقُّ مَلَانُ
 وَبَغْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ
 وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ مِنْ لَا يُنْحِيكَ إِحْسَانُ

هذا شيخ جاهلي ، قد تقلبت عليه الأيام بحلوها ومرها ، ودارت عليه دوائر الزمن ، وجال في الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ، وكان الرمح لعزمه ظهيراً ؛ وقد دعى للحرب وهو في شيخوخته فلبى الدعوة لأن الشر قد صرح ، ومشى في قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم في ذلك شعراً حريباً يحمل في وزنه وقافيته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل في ألفاظه حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المرى :

والحصين بن الحمام المرى شاعر جاهلي وفارس مذكور يعد من أوفياء العرب . وما يروى من أخباره أنه كان ناس من بني قضاعة يقال لهم بنو سلامان ابن سعد حلفاء لبني صرمة بن مرة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر حلفاء لبني سهم بن مرة ، وكان في بني صرمة يهودى من أهل تيماء يقال له جهينة ، وكان في بني سهم يهودى من أهل وادي القرى يتاجر في الخمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبني صرمة ، وكان يُتَشاعَم بهم ، ففقدوا منهم رجلاً ، يُقال له حُصَيْن كان يقطع الطريق وحده ، فكانت أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه في كل مجلس وموسم ! فجلس ذات يوم أخ لذلك المفقود في بيت ذلك اليهودي المجاور لبني سهم يبتاع خمرًا ، إذ مرت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودي : نشدتُك الله ودينك هل تعلم لأخي علماً ؟ فقال : لا وديني لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودي :
لعمرك ما ضلت ضلال ابن جوشن حصاة بليل ألقيت وسط جندل

وأراد أن الحصاة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودي قتله أبو جوشن جار بني صرمة . فقال : اقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صرمة فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقاتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أئخذوا فيهم وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصفة على بني سهم مع بني صرمة . فأقاموا على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فَقُلْتُ لَهُمْ يَا آلَ ذَبْيَانَ مَا لَكُمْ تَفَاقَدْتُمْ ، لَا تُقَدِّمُونَ مُقَدِّمًا (١)
مَوَالِيَكُمْ مَوَالِي الْوِلَادَةِ مِنْهُمْ وَمَوَالِي الْيَمِينِ حَابِسٌ قَدْ تُقَسِّمُ (٢)
وَقُلْتُ تُبَيِّنُ هَلْ تَرَى بَيْنَ خَارِجٍ وَنَهْيِ الْأَكْفِ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمًا (٣)

(١) تفاقدتُم : جملة اعتراضية ، وهي دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أي إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر في هذا البيت الموالى إلى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وهو الذي سماه مولى الإيدين لأنه يقسم له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين يتنسبون بولاء النسب وولاء الحلف فكل منهم ذو حبس على الشر متقسم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبني عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم : الذي لا يفصح .

مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لَا تَرَى
 عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمُ مُحَرَّقٌ
 صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا
 وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ
 صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً
 نَفَلَقُ هَاماً مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي
 فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ
 مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا الْخَارِجِيَّ مُسَوِّمًا (١)
 وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَكْرَمًا (٢)
 وَمَطَرِدًا مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مُبْهِمًا (٣)
 وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمًا (٤)
 بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَعْصَمًا
 عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقًا وَأَظْلَمًا (٥)
 عَمَدَتْ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
 وَلَا مُرْتَقِيٍّ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ مُسْلَمًا

الحصين بن الحمام المريّ يحارب أيضاً لأن داعي الشرف دعاه إلى ذلك ،
 وعنده الميثة الحسنة على ما يتعقبها من الأحداث الجيلة آثر من العيشة الذميمة
 على ما يخالطها من الذل . إنه يحارب بحزم وجلد ، وهو يصف حربه بإيجاز
 شديد ، وإذا الحرب عنده خيل مسومة كثيرة العدد ، عليها فتیان بدرع
 دقيقة الصنعة وسيوف بتارة ، وتفليق لها مامات الأبطال ، وإذا شعره حكاية حال ،

(١) الخارجي من الخيل هو الذي برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها
 يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لحم حرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » في البيت السابق . بصرى :
 موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتتابعة النسيج . يقول :
 كساهم محرق سيوف بصرى التي أجيد صنعها وكساهم أيضاً دروعاً متتابعة النسيج خفيات الحلقات
 لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أي وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهراً ،
 لاحتجاب الشمس فيه من الغبار أو لشدة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذي حملنا على قتالهم إنما هو ظلمهم وعقوقهم .

وإبداء لآرائه في الحياة والموت ! وإذا هو في كل ذلك شاعر بدويّ مستميت
في سبيل الشرف والإباء .

المهلل :

هو عدى بن ربيعة التغلبي ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل
من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر في نهاية الأمر ومات في أسره . وأكثر شعره
في رثاء أخيه كليب وفي توعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة
التي تغالى في وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولي
وطلب المستحيل في غير منطق ولا تحليل ، وذلك كله تارة في جو ملحمة من
الشعر الحربي ، الذي تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً
في أجواء من الميوعة هي موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلل هو أدب حرب
وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلل
هو بطل في الحرب وفي اللهو ، وقد نسجت حواليه أسطورة الزير ، فلا عجب
أن دس في شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف
والهلهلة والإسفاف في أدبه .

الحماسة في المعلقات :

إن من يقرأ المعلقات يلمح أن فيها ناحية ملحمة كما في سائر الشعر
الجاهلي ، وإننا سنجتزئ بذكر ثلاث من تلك المعلقات ، وفيها شاهد كاف
على ما نقول وما نحن في صددده : معلقات عمرو بن كلثوم ، والحارث بن
حزرة ، وعنترة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبي ، وأمه ليلى بنت المهلل .
نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين البكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفي نفسه ما فيها . ثم خطر في نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلى ، وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر . فصاحت ليلى : « وإذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم . فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه ، ثم رحل تَوّاً إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قسماً بين فيه سخطه على عمرو بن هند .

وإننا لنشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه بهشهد أخيل يخاطب هكتور في لهجة الناقم ، في لهجة الشجاع الباسل الذي يتدفق تدفق السيل الجارف ، في لهجة من تملأ من المجد وقام في قومه مقام السيد ، وحمل في نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعانق فيه السيوف والرماح وتجرى فيه الدماء سيولاً ، ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس في هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماح ، أدب الانفعال الشديد الذي لا يحد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة في التفكير والتنسيق ، وأفكاره متدافعة ، متقاذقة ، مكورة ، تسبح في عالم من الخيال الجامح الذي يغلو ويفرق في الغلو .

أما الحارث بن حلزة الشكري البكري فهو الذي وقف في وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المملوءة من المعلقات ، والتي وصف فيها الحرب ومزج في الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابي ملحمي ، يرمي إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولي ، وذلك

في جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التي تدوى في هدوء وانطلاق ، وتماشي العقل والشعور والخيال ، فتزيدها قوة وعمق تأثير .

وعنتر بن شداد : هو عنتر بن شداد العبسي أحد فرسان العرب وأغربتها وشعرائها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنتر قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذي تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى في الفروسية والبطولة . وقد حفر عنتر على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته في استرضاء عبلة ، ومحوسود الجلد ببيض الفحال . وشاخ عنتر بن شداد وهو أبداً رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلاً نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[وَرَدَ فِي كِتَابِ «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ما يلي : « كان عنتر من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابه رجل من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنتر : والله إن الناس ليتراقدون بالطئمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وإن الناس ليُدعَوْنَ في الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط . وإن اللبس ليكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل ، وإنما أنت فقعه نبت بقرقر وإنني لأحتضر البأس ، وأوافي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم . وأنشد معلقته التي نورد طرفاً منها :]

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ ؟

يا دارَ عَيْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي
 حَيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادِمَ عَهْدِهِ
 حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
 عَلَّقَتْهَا عَرْضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
 وَلَقَدْ نَزَلْتُ - فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ
 كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
 إِنْ كُنْتَ أَرْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
 مَا رَاعَنِي إِلَّا حُمُولَةُ أَهْلِهَا
 فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حُلُوبَةً
 إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ
 وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
 أَوْ رَوْضَةً أَنْفَأَ تَضْمَنَ نَبْتَهَا
 جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةً
 سَحًا وَتَسْكَابًا فَكُلُّ عَشِيَّةٍ
 وَخَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ
 هَزَبًا يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ
 تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ
 وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَبَلِ السَّوَى
 هَلْ تُبْلِغُنِي دَارَهَا شِدْنِيَّةً

وَيَعْمِي صَبَاحاً دَارَ عَيْلَةٍ وَأَسْلَمِي
 أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْشَمِ
 عَسِيراً عَلَى صِلَابِكَ ابْنَةُ مَحْزَمٍ
 زَعَمًا لِعَمْرُؤِ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ
 مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ
 بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلَمِ
 زُمْتُ رِكَابِكُمْ بِلَيْلٍ مُظْلِمٍ
 وَسَطَ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبَّ الْخَمْخَمِ
 سُدَّ كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ
 عَذِبٍ مُقْبِلُهُ لَدِيدُ الْمَطْعَمِ
 سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ
 غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ
 فَتَرَكْنَا كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهَمِ
 يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
 غَرْدًا كَفَعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنَّمِ
 قَدْ حَ الْمَكِيبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
 وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَذْهَمَ مُلْجَمِ
 نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ الْمُحْزَمِ
 لُعِنْتُ بِمَحْزُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ

خَطَّارَةٌ . غِيبُ السُّرَى . زِيَاةٌ
 إِنْ تَغْدِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي
 أَنِّي عَلَى بَمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
 فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنْ ظَلِمِي بِاسِلٌ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
 بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أُيْرَةٍ
 فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى
 هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
 إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالٍ سَابِحٍ
 طَوْرًا يُعْرَضُ لِلطَّعَانِ وَتَارَةً
 يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَنَّنِي
 فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْتُهَا
 وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةَ نِزَالُهُ
 جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
 فَشَكَكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
 وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ نَوَاهِلُ
 فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنَّهَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ

تَطِشُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيشَمٍ
 طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلِثِمِ
 سَهْلٌ مُخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
 مُرٌّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ
 رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
 قُرِنْتُ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُقَدِّمِ
 مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
 وَكَمَا عَلِمْتَ شَائِلِي وَتَكْرِمِي ...
 إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
 نَهْدُ تَعَاوُرُهُ الْكُمَاةَ مُكَلِّمِ
 يَأْوِي إِلَى حَصْدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمِ
 أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِيفٌ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
 فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرِمِي
 لَا مُمَعِنَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
 بِمُشَقِّفِ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوِّمِ
 لَيْسَ الْكَرِيمَ عَلَى الْقُنَا بِمُحَرَّمِ
 مَنِي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دِي
 لَمَعَتْ كِهَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
 يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَاحُ كَانَتْهَا أَشْطَانُ يَشْرِ فِي لَبَانِ الْأَذْهَمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةٍ وَجْهِهِ وَلَبَانُهُ حَتَّى تَسْرِبَلْ بِالْدَمِ
فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحَنُّمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةِ أَشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عِلْمَ الْكَلَامِ مُكَلِّمِي
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الْقَوَارِسِ: وَيْلَكَ ، هَتَّتْ أَقْدَمِ
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شَتُّ بِمُشَايِعِي قَلْبِي ، وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ
وَلَقَدْ خَشِيتُ بَيَانَ أُمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمُومِ
أَلْسَانِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتِمُهُمَا وَالنَّادِرَيْنِ إِذَا لَمْ الْقُهُمَا دَمِي
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَشْرِ قَشْعَمِ

وإننا ، ونحن نقرأ شعر عنتر بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هي أشبه
شيء بهيلانة التي كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأننا أمام عبلة
التي يشور لأجلها البطل العربي ، ويحارب في سبيلها ، ويسفك الدماء أنهاراً ،
وأننا أمام بطل هو أشبه شيء بأخيل طيار الخطي ، الذي يعتزل الحرب لخلاف
نشب بينه وبين أغاممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأننا أمام عنتره يعتزل
الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنتره ابن أمة
لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن
يكون حرّاً . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به : « ويك
عنتر أقدم ! » فيقدم عنتره حرّاً ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الذعر في
البلاد ، على جواد يكاد يتكلم ، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يهترق الصدور ،
ويطير القلوب .

وترى في عنبرة جميع الصفات التي كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى
من شجاعة وشرف وقتال في سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب
شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده في إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة
يلتهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقفه ، وإذا نفّسه يقترب من نفس الملاحم ،
فهو يجعلنا في جوملحمى أبطاله سيف الشاعر ورمحه وساعده ، ونخوارقه أعمال
الشاعر التي يضحّمها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ،
فتتوالى على السمع والبصر في إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفي موسيقى شديدة
الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبي .

الحماسة في العهد العباسي

(١) دواعي الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح في العهد العباسي ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة في أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لتمدت جذوة الشعر الحربي في العالم العربي ، أما تلك الحروب والفتن فمرجعها إلى ما يلي .

قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعبوية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصرت شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وهكذا حاكى العباسيون الأكاسرة في تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففقرعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرهم وينهون ، من مثل جعفر ابن يحيى البرمكي ، الذي ولاه الرشيد المغرب كله من أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أي الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لحوفه على

نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالأحرار ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى في البلاد .

وتم تخل البلاد في عهد بني العباس ، من حروب وفتن . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤطى أبي مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرمية^(١) مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام . وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتي ، وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدي والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت في العهد العباسي مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الخرمي ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتصم على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزنوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومي تاريخها في شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التي سنأتى على ذكرها في دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسي في العهد العباسي حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء في هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفني وألفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزييق والتهويل في الوصف والتصوير .

(١) ظهر بابك الخرمي في عهد المأمون نحو سنة ٧١٨ م .

(ج) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون في الشعر الحماسي لهذا العهد ، وإننا سنقتصر على ذكر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، وقد اهتم للحروب والفن التي نشبت في أيامه في شرق العراق وفي غربه ، ومن أهمها الحرب التي دارت بين بابك الخرمي والمعتصم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم في أرض البلد وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتصم قائده الأفشين عملاً بوصاة أخيه المأمون قبل موته ، فسار إليه بجيش حسن الإهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان التحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن افتر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ؛ وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير وتشرذم الباقون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتصم مغلولاً ، فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر في اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه .

وقد نظم أبو تمام في فتنة بابك الخرمي شعراً كثيراً ، من أروعها قصيدة لامية قالها في انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته في البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذي مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذي دوّخ البلاد بجيش جمعه من الترك والفرس وكل من نغم على بني العباس ؛ وراح أبو تمام يتتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسلاً عظيماً ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعاني الحربية الشديدة ، ومن الأخيلة الضخمة ، ومن الموسيقى التهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرَشَقَ كُنْتَ رُشِقَ مَنِيَّةٍ	للخرمية ، صائبَ الآجالِ
أَسْرَى بنو الإسلامِ فِيهِ وَأَذْلَجُوا	بقلوبِ أسدٍ في صدور رجالِ
لَمَّا رَأَاهُمْ بَابَكَ دُونَ المُنَى	هَجَرَ الغوايةَ بعد طولِ صِيَالِ
يَوْمُ أَضَاءَ بِهِ الزَّمَانُ وَفَتَحَتْ	فِيهِ الأَسِنَّةُ زهرةَ الآمالِ
وَسَرُوا بِقَارعةِ البياتِ فزَحْزَحُوا	بِقِرَاعِ لا صَليْفٍ ولا مُخْتَالِ
نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ عَلَيْهِم	لَمَّا تَدَاعَى المسلمونَ : نَزَالِ
لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ فِيئُهُ حَتَّى رَمَى	وَقْتُ الزَّوَالِ نَعِيمَهُمْ بِزَوَالِ
فَالْبَدُ أَغْبَرُ دَارِسُ الأَطْلَالِ	بَيْدِ الرَّدَى أَكَلٌ مِنَ الآكَالِ
أَلَوْتُ بِهِ ، يَوْمَ الخَمِيسِ ، كَثَائِبُ	أَرْسَلْنَهُ مَثَلًا مِنَ الأمثالِ
كَمْ صَارِمٍ عَضِبَ أَنْفَ عَلَى فَتَى	مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الوَغَى حَمَالِ
سَبَقَ المَشِيبُ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ	وَطْنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقْدَالِ
قَاسَى حَيَاةَ الكَلْبِ إِلَّا أَنَّهُ	قَدْ مَاتَ صَبْرًا مِيتَةَ الرُّبَالِ

وهكذا يسير أبو تمام في ملحمة الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاطه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد ينتشى لذكره ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، ويقيم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابع أبياتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتتموا فرصة انشغال العرب بحروب بابل ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيماً من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف في رقاب أهلها ، كما أعمل النار في ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذن الخليفة ارتاع له ، وهب من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقواده الكبار من مثل الأفسين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا في وقت إدراك التين والعنب ، فلم يعبأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهار الجيش العربي على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بمال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبي تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب في سامراً يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّيْبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لِأَسْوَدِ الصَّحَائِفِ فِي	مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ	بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرُّوَايَةِ بَلْ أَيْنَ النُّجُومِ وَمَا	صَاغُوهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً	لَيْسَتْ يَنْبَغُ ، إِذَا عُدْتُ ، وَلَا غَرَبِ

يا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ أَنْصَرَفَتْ عَنْكَ الْمُتَى حُفْلًا مَغْسُولَةً الْحَلَبِ
لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ
غَادَرْتَ فِيهَا أَبْهَمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى يَشُدُّهُ وَشَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عَنْ لَوْنِهَا ، أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ
ضَوْءُ مِنَ النَّارِ ، وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلُمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَجِبِ
فَالشَّمْسُ طَالِيعةٌ مِنْ ذَا ، وَقَدْ أَقْلَتْ وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبِ
تَذْيِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمِ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبِ
لَمْ يَغْزُقُوا ، وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ، إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُجْ حُفْلًا يَوْمَ الْوَعَى لَفَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَخَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها أبو تمام في فتح عمورية ، وقد خلق فيها تحليل النصور ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت في ليل من عجاج وظلام ، وفي نهار من لب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد في الجو لهباً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحربي المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة في تناقضها ، والعبارات المحبوكة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صاعد .

ولانه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام في شعره الحماسي الكثير ، وإننا نكتفي بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره في باب الفخر الذاتي ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة في طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكي المحاسني من كتابات المؤرخين أوصاف جيشي الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب . . . ولم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليوناني ، الذي سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطي الجذع ، وجانبينات تستر رجله والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيول . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول الغربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي الفرس . . . ولم يكن شيء يختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين . . . ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين يتقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ، ورحى المعركة تدور ، يستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعدتهم فرحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مصفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التي لا ينتهي الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا في مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكى يسرعوا في السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراءه » .

أما أهم المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي في شعره أروع تسجيل . أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهي مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكنوا في بطن اللقان بالقرب من خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب الدمستق أن جيش العرب قليل العدد والعدد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ، ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيما هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن في كل مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ، وإذا الروم في انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة في نشوة أنستهم أن الروم جمعوا صفوفهم ، وكنوا لهم في طريق ضيقة وانهالوا عليهم ضرباً وتقتيلاً ، ففروا إلى بلادهم هارين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبوقاً ببوق الظفر ، مشيداً ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتتبع حركات الزحف العربي ، ويصف ضعف نظر الدمستق في الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة الجيش العربي ، ويعن في وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر معنوي للأمير العربي ، ويقول :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ	إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
وَالْمُشْرِفِيَّةُ لَا زَالَتْ مُشْرِفَةً	دَوَاءُ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ الْوَجَعُ
وَفَارُشُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوْقَهَا	فِي الدَّرْبِ وَالْدَّمُ فِي أَعْطَافِهِ دُفَعُ
بِالْجَيْشِ تَمْتَنَعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ	وَالْجَيْشُ بَابِنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنَعُ
قَادَ الْمُقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلُ	عَلَى الشَّكِيمِ وَأَذْنَى سَيْرِهَا سَرَعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو في حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربي . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبي ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميمته الشهيرة :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما في قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هي حمراء من دم الأعداء ، وإذا سيف الدولة يبنينا في حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعالي الفضاء :

أَتَوَلَّكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَالَهُنَّ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا يُفْهِمُ الْحُدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسماء ، وقد ضم جناحي العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّهَا مَفَاتِيحُ الْبَيْضِ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ

وهنا وقف المتنبي يصف في هياج ظاهر ، وفي لهجة مطوية على الإعجاب .

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة
تتابع السيل الجارف ، في غلو خيالي لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الخيل :
إِذَا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا بِبُطُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً .

وأما معركة الدرب . فرجع أسبابها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه
يعارض سيف الدولة في الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقه وعدده وعدده ،
ففعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ، وكانت هذه المعركة آخر
المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر
ما أنشده بحلب . ومطلعها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَعَى نَدَمٌ مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف
الدولة ، فاضطره إلى نقض يمينا فتي أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه
وأنساه كلامه ووعدده ، فتي تكل السيوف وهو لا بكل :

كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا يَمَسُّهَا - غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - السَّامُ

ففي ظن الروم أنه كالمصباح في حلب إذا فارقتها إليهم أظلمت وانتقض
أهلها عليه وشقوا عضوا الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التي تعم كل مكان بنورها ،
وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، وخیل حميت حدائد لجمها من شدة
الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسيم ؛ ولا وصل إلى سمنين وردت خيوله بحيرتها
فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنريط
فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالت السيوف لتقطيع الرؤوس ، فهرب

العدو واجتاز نهر أرسناس علىه يجد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربي أصبحت سفناً تمخر في عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هو ذا المتنبي في حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حاب :

صَدَقْتَهُمْ بِخَمِيْسٍ أَنْتَ غُرَّتْهُ	وَسَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ	يَسْمُقُظَنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ مَلَأَ الطُّرُقِ خَلْفَهُمْ	وَالْمَشْرِفِيَّةُ مَلَأَ الْيَوْمِ قَوْفَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ ضَاعِدَةً	تَوَافَقَتْ قُلُلٌ فِي الْجَوِّ تَضْطَلِمُ

وهكذا ينطلق المتنبي في جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا ينحتم ملحمة الحمدانية بقصيدة هي من أروع قصائده ، وهكذا « نخلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين القروسية وتهاويلها ، في دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

واصل الشعر الحماسي سيره بعد أبي الطيب ، فكان عند أبي فراس الحمداني ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفي الدين الحلي انتفاضة شديدة ، ولا سيما في قصيدته النونية المشهورة التي أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هاني الأندلسي وعند الشيخ ناصيف اليازجي تقليداً لشعر المتنبي ، وكان عند محمود سامي البارودي انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقي و خليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان في كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التطويل في مثل هذا الكتيب ، ولنا في ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال في ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها في شاعر معاصر هو في نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو في نظرنا القمة التي وصل إليها الشعر الملحمي الواعي ، والشعر الملحمي الموسوعي ، والشعر الملحمي الذي يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمي الذي يعالج قضايا العرب الاجتماعية في حرار وفصاحة نور ، والشعر الملحمي الذي يوجه ويقود في بلاغة عربية أصيلة ، وفي بيان عربي رائع ، وفي مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفي تدفق ينبوعى يضطرب في لون محلي ، وفي تنوع غني ، وفي جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمته الكبرى فهي « ملحمة عيد الرياض » التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون في طبع هذا الكتيب ، والتي نظمها صاحبها في مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتي وقعت في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملحمة « عيد الغدير » وها هو ذا يتحفها اليوم بملحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى في الأولى بالإمام عليّ ، وتغنى في الثانية بما ثرا بن سعود لما لقي فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ، وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى لماح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع وخفض جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة في مقدمته : « ولعمري إن هذه الملحمة لترتفع عن الحادثة اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق كل يوم ، بل لم يقع مثلها في أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب داحس والغبراء ؟ فإن عنتره ، على شجاعته ، في زمن بقي فرسانه دروع وأتراس ، لا يوازي ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة نفسها ، لولا الخيال الهوميري الذي لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ، بل غمر بالآلهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقريّة شاعرها وإبداعه في الخلق والاختلاق ، فإننا نباهيها ببطولة عبد العزيز التي لا يضيرها صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخي ، وراح يلقي عليه من شخصيته القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح يمزج السرد بانفعالات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح القارئ والسامع ، وراح ينظم القصائد الطويلة في جزالة وسهولة عجيبتين ، وفي تدفق شعري رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر سبغ شعره في عالم من الروعة الأخاذة ، التي تجمع البداوة إلى الحضارة والقطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض
موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ؛ وهكذا كانت
صلصلة سيوف ، ورفرفة أجنحة ، وخفقة قلب حى ، وجمالاً شعرياً على كل
حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الْحَرْبَ «دَاحِسٌ» فَاسْتَطَارَتْ	وَأَمَدَّتْ بِالْعِثِيرِ «الْمَغْبِرَاءُ»
أَمْطَرَتْ نَارَهَا نَجِيعاً وَدَمْعاً	وَمِنَ الْحَافِرَيْنِ ذَرَّ الْبَلَاءُ
وَبَنُو «الْعَبَسِ» جَمْرَةُ الْعُرْبِ لَوْلَا	عَنْتَرٌ لَاعْتَرَى سَنَاها انْطَفَأَ
إِذْ يُنَادُونَ وَيَلُكَّ عَنْتَرٌ أَقْدِمُ	وَعَزِيزٌ عَلَى التَّجِيدِ النَّدَاءُ
الْمُرَوَّاتُ فِي دِمَاهِ اسْتَجَابَتْ	وَأَسْتَشَاطَ الْفَوَادُ وَالْأَحْنَاءُ
وَتَنْثَرَتْ أَوْدَاجُهُ وَالْجُفُونُ الـ	حُمُرُ أَجَّتْ قَدُونَهَا الرَّمْضَاءُ
فَرَمَى فِي الْعِجَاجِ مُهْرًا قَتَاماً	كَانَ لَيْلًا فَحَمَرَتْهُ الدَّمَاءُ
قُنْفُذًا عَادَ مِنْ وَقُوعِ السُّهَامِ الزَّ	رَقِ غَصَّتْ بِسَيْلِهَا الْأَعْضَاءُ
كَأَذِ يَبْكِي مِنَ الْجَرَاحَاتِ لَوْلَا	أَنَّ فِي سَرِّجِهِ اسْتَقَرَّ الرَّجَاءُ
فَتَعَجَّبَ لِأَذْهَمِينَ أَطْلَتْ	مِنْهُمَا فِي الْمَعَامِ الْأَضْوَاءُ
قَدْ يَذُرُّ الضِّيَاءُ مِنْ جَنَحِ لَيْلٍ	وَمِنَ الْخَيْرِ قَدْ يَطْلُ الشَّقَاءُ
لَمْ يَرُوعَ «أَبَا الْفَوَارِسِ» جَيْشُ	كُلَّمَا ازْدَادَ زَادَ مِنْهُ الْمَضَاءُ
خَلْفَهُ طَرَفُ عِبِلَةٍ وَلَمَّا هَا	فَالْمَنَايَا لَطَرَفَهُ إِغْرَاءُ !

فهرس

صفحة

٥	مقدمة
٩	الفصل الأول : الفخر الذاتي
١١	في الجاهلية :
١٢	— فخر الصعاليك
١٥	— فخر الشعراء الفرسان
١٧	— فخر الأمراء وشعراء البلاط
٢٣	في العهد العباسي :
٢٤	— فخر المجتدين
٢٧	— فخر العودة إلى القديم
٢٩	— فخر شعراء الإمارات
٣٧	الفخر الذاتي بعد العهد العباسي
٣٨	الفصل الثاني : الفخر الحزبي
٤٠	— شعر الخوارج
٤٠	— شعر الشيعة
٤١	— شعر الزبيريين

صفحة

- ٤٢ - شعر الأمويين
- ٤٤ - شعر المثلث الأموي
- ٤٩ . . . : الفصل الثالث : الفخر الديني أو الحماسة الدينية :
- ٥٣ . . . : الفصل الرابع : الفخر الحماسي :
- ٥٦ - الحماسة في الجاهلية
- ٧٩ - الحماسة في العهد العباسي
- ٩٠ - شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

رقم الإيداع	١٩٩٧ / ٥٧٠٩
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-3758-2

١ / ٩٢ / ٥٩

طبع إطنبع دار المعارف (ج-م-ع-٠)

مجموعة فنون الأدب العربي



لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكون هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .

To: www.al-mostafa.com